البـــــاب السابع

الحياة الاجتماعية

أولاً: طبقات المجتمع السلوكي:

لعل أقرب تقسيم للمجتمع المملوكي في تلك الفترة، هو التقسيم الذى وضعه المقريزى عندما درس أثر ارتفاع الأسعار في طبقات المجتمع زمن السلطان برقوق وابنه السلطان فرج، فقد قسم المقريزى المجتمع المملوكي وقتئذ إلى سبعة أقسام، وهى، أهل الدولة، وأهل اليسار من التجار وأولو النعمة والترف، ومتوسطو الحال من الباعة والسوقة، وأهل الفَلْح، والفقهاء وطلاب العلم، وأرباب الصنائع والمهن، وذوو الحاجة والمسكنة[١].

غير أن هذا التقسيم الذى نظر إليه المقريزى من الزاوية الاقتصادية، أغفل ذكر طبقتين من أهم طبقات المجتمع في تلك الفترة، وهم الأعراب، وأرباب الوظائف الديوانية من المسلمين وأهل الذمة.

وهناك تقسيم آخر ذهب إليه بيلوتى التاجر الكويتى الذى عاش في مصر أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادى ـــ أى أنه كان معاصرا للسلطان برقوق وابنه السلطان فرج ـــ فقد جعل بيلوتى المجتمع المملوكي ثلاثة أقسام، وهى: الشعب بسائر عناصره، ورجال الطبقة الحربية وهم المماليك، والبدو أو الأعراب[٢].

أما ابن خلدون الذى عاش في مصر كذلك أواخر عهد السلطان برقوق وأوائل عهد السلطان فرج، فقد قسم المجتمع المملوكي وقتئذ إلى قسمين: طبقة حاكمة وهم المماليك، وطبقة محكومة وهى الشعب بسائر عناصره[٣].

وكيفما كان الأمر فإن الباحث الحديث يمكنه بعد دراسته لنشاط الطوائف المختلفة في المجتمع وقتئذ، أن يتوصل إلى تقسيم هذا المجتمع إلى سبع فئات، هى:

---

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص٧٣.

(٢) Dopp. Op. Cit. P. XXVI.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص١٨٨.

المماليك أو رجال السيف، والمعممون، وأهل الذمة، والتجار، والعامة، والفلاحون، والأعراب.

١- المماليك:

وهؤلاء جاءوا إلى مصر من مختلف البلاد مع تجار الرقيق الذين أتوا بهم من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر، فكانت هذه الطبقة خليطا من الأتراك الشراكسة والروم والروس والأكراد[١].

وفى أيام السلطان برقوق غلب على هذه الطوائف من المماليك العنصر الجركسى، حيث استحدث برقوق ديوانًا يتولى شراء المماليك من بنى جنسه، كما يتولى الإنفاق عليهم[٢]، حتى بلغت عدة مماليكه من الجركس فى مدة حكمه ما يقرب من خمسة آلاف مملوك[٣]، فضلا عما جلبه من سائر الأصناف الأخرى من الترك والروم والبلغار والآص وغير ذلك، وهكذا جمع من المماليك ما لم يجمعه غيره من السلاطين، حتى قيل: «وصل جميع من اشتراه من المماليك في أيامه بدفعات متفرقة إلى أكثر من عشرين ألف مملوك»[٤].

وقد تميز المماليك عن سائر الطبقات باعتبارهم الطبقة العسكرية المسيطرة على شئون البلاد وأهلها، فكانت لهم مكانة كبيرة في المجتمع، ومَنْـزِلة رفيعة عند السلطان، وخير ما يوضح ذلك أن السلطان برقوق لم يمت حتى عمل من مماليكه الذين اشتراهم نوابا عنه بالبلاد، كما كان «غالب أمرائها وغالب الولاة والكشاف من مماليكه الذين اشتراهم»[٥].

---

(١) Heyd: Op. Cit. P. 560.
Poliak: Op. Cit. P. 4

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ق١ ص٣٣٦

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ق٢ ص٥٢٧.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٤٩٩.

(٥) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

وهكذا استأثر المماليك بالحكم وشئون الحرب، كما تمتع أمراؤهم بحياة البذخ والترف بحكم مَنْـزِلتهم الرفيعة في الدولة، فكان الأمراء يحيون في قصورهم في مستوى قريب من المستوى الإقطاعى المعيشى للسلطان، ويعتبر قصر الأمير صورة قريبة من القصور السلطانية، بل الأمير نفسه «سلطان مختصر»[١].

ومن أمثلة قصور الأمراء في هذه الفترة الدار التى أنشأها الأمير بهادر مقدم المماليك السلطانية زمن السلطان برقوق، وتقع هذه الدار بخط الباطلية بالقرب من الأزهر، وقد استقرت هذه الدار بعد وفاة بهادر سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م منزلا لأمراء الدولة[٢].

كذلك دلت أسمطة الأمراء على الترف الزائد، فكان سماط الأمير سودون الظاهرى من أمراء الناصر فرج ألف رطل من اللحم في اليوم فضلا عن الدجاج والأوز[٣].

ولا أدل على حياة البذخ التى كان يعيشها الأمراء مما خلفه بعضهم من ثروات طائلة، فيذكر عن الأمير أقْبَاى رأس نوبة الأمراء زمن السلطان فرج، أنه لما توفى سنة ٨١٢هـ وجد لديه من الذهب المصرى أربعون ألف دينار، فضلا عن الغلال والخيول والجمال والأثاث وغير ذلك[٤].

وعلى رأس هذه الطبقة الحربية كان السلطان الذى يعيش في قصوره بالقلعة وسط مظاهر البذخ الإقطاعى، وكذلك كان السلطان برقوق يقيم هو وأسرته وحاشيته بالقصور السلطانية في قلعة الجبل، وسط مظاهر الفخامة والترف، في وقت غدت فيه القلعة زاخرة بقصورها الفخمة وسقوفها المذهبة وجدرانها المزدانة بالفصوص الملونة، وطرقها المغطاة بالرخام المزخرف المجلوب من سائر البلاد[٥].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٦٠.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٧٤.

(٣) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٣ ص٢٩٥، السخاوى: الضوء اللامع جـ٢ ص٣١٣.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٢٦٠ – ٢٦١، السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص٢٨٠.

(٥) ابن شاهين: زبدة كشف المماليك ورقة ٣٤.

وأكثر ما يتضح هذا البذخ فى المطبخ السلطانى الذى وصفه ابن شاهين الظاهرى بقوله: «لا تنتفى النار منه أبدًا»[١] فكانت مخصصات المطبخ السلطانى أيام السلطان برقوق خمسة آلاف رطل من اللحم فى اليوم سوى الدجاج والأوز[٢]، بل بلغ الأمر بالسلطان برقوق استكمالا للرفاهية أنه كان يجلب الثلج من جبال الشام لتبريد الماء بالقصور السلطانية أيام الصيف، فقرر له هجنا تحمله فى البر حتى يصل إلى قلعة الجبل ليحفظ فى الشرابخاناه ويخزن فى صهاريج خاصة[٣].

ولم تكن المطابخ السلطانية التى تصحب السلطان في أسفاره ورحلاته تقل بذخا عنها داخل القصور السلطانية بالقلعة، بل دلت هى الأخرى على المستوى الإقطاعى المعيشى للسلطان.

فمثلا حينما خرج السلطان فرج بن برقوق في سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م، على رأس الحملة المتوجهة إلى الشام لتأديب الخارجين عن طاعته واصطحب معه المطبخ السلطانى، كانت مخصصات هذا المطبخ من اللحم فقط ثمانية وعشرين ألف رأس من الغنم الضأن، هذا فضلا عما اصطحبه معه من القوافل العديدة من البقر والجاموس لأجل ألبانها[٤].

وفى غمار هذا البذخ الواضح زخرت ملحقات القصر الأخرى بألوان الترف والرفاهية، وهى الملحقات التى عرفت فى المصطلح المملوكى باسم «البيوتات السلطانية» وهى عبارة عن الشرابخاناه، والطشت خاناه، والفراش خاناه وما إلى ذلك مما أفاض في ذكره النويرى والقلقشندى وابن شاهين فيما كتبوه[٥].

---

(١) ابن شاهين: المرجع السابق ص١٢٥.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢١٠.

(٣) ابن شاهين: زبد كشف الممالك ص١١٧ - ١١٨.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص١٣٤ - ١٣٥.

Demombynes: Op. Cit. P. CIII.

(٥) انظر النويرى: نهاية الأرب جـ٨ ص٢٢٤ — ٢٢٦، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٩ — ١٣، ابن شاهين: زبدة كشف المماليك ص١٢٤ — ١٢٨ يضاف إلى ذلك أن الدراسات =

٢- المعممون:

وتضم هذه الطبقة أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والكتاب، كما تسمى هذه الطبقة أيضًا برجال القلم[١].

وقد أشار القلقشندى إلى أهم المناصب الديوانية فذكر منها الوزارة ونظر الدولة واستيفاء الصحبة ونظر الخاص ونظر الجيش ونظر البيوت والحاشية ونظر بيت المال ونظر الأسواق وخزائن السلاح والأملاك السلطانية، كذلك أشار إلى أهم الوظائف الدينية كالقضاء والإفتاء ووكالة بيت المال والحسبة ونقابة الأشراف ومشيخة الشيوخ ونظر الأحباس المبرورة والخطابة والتدريس[٢].

وقد عاشت بعض عناصر هذه الطبقة حياة مترفة، كما حظيت فى مسكنها ومأكلها بنصيب وافر من الرفاهية، فكان أغلب أرباب الوظائف الديوانية يسكنون بالدور التى أقاموها على الخليج الناصرى، حيث تأنقوا فى بنائها وتزيين سقوفها، كما فرشوها بالرخام، وغرسوا حولها الأشجار، وقد أشار المقريزى إلى أن أكثر من كان يسكن هذه الديار هم الكتاب، كما وصف ترف سكانها ورفاهة عيشهم بقوله: «وإنى لأذكرها وما مررت بها قط إلا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم، إما روائح تقالى المطبخ، أو عبير بخور الند... ونحو ذلك»[٣].

- الحديثة المتخصصة قد أفاضت أيضًا في الحديث عن البيوت السلطانية ومديريها إفاضة لا مزيد معها، ولذلك آثرت أن أصرف عنايتى إلى الأمور ذات الصلة المباشرة بفترة البحث والمتعلقة بالحوادث الخاصة بهذه الفترة، وفضلا عن ذلك فإن أوصاف البيوت السلطانية والحديث عن مديريها أمر يكاد ينصرف إلى كل عهود المماليك وينطبق على كل سلطان يقيم بالقلعة، ومن المؤرخين المحدثين الذين تناولوا هذه الأمور بشيء من التفصيل على إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية ص١٦٤ وما بعدها، سعيد عاشور: المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص٦٠ وما بعدها، عبد المنعم ماجد، نظم دولة السلاطين المماليك جـ١ ص١٦ - ٣٣.

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص٢٨.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٨ - ٣٩.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص١٦٤.

وتميزت بقية عناصر الطبقة ولا سيما جماعة العلماء باحترام المماليك في أغلب الأحيان، وقد أفاضت المصادر المعاصرة في تعدد مظاهر الحب والاحترام التي حظي بها العلماء من جانب السلطان برقوق، فيذكر عنه أنه كان إذا دخل عليه عالم أو متصوف انتصب له قائمًا، ومشى نحوه عدة خطوات محتفيا به[١] بل دفعه حبه وتعظيمه للعلماء، أنه كان إذا اجتاز بخانقاه شيخون، ظل واقفا أمامها حتى يتهيأ شيخها الشيخ أكمل الدين البَابَرْتِي للخروج، فيركب معه ويتحدثان معا في الطريق[٢].

وكثيرًا ما استشار السلطان برقوق العلماء في المسائل المتعلقة بالأوقاف وغيرها من الأمور الدينية، وأقرب مثل لذلك ما دار في المجلس الذى عقده السلطان برقوق سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، بعضوية كل من شيخ الإسلام والقضاة الأربعة، حيث دار في هذا الاجتماع مناقشة حول تدبير المال اللازم لمواجهة خطر تيمور لنك، وبدا للسلطان برقوق أن يستولى على بعض الأوقاف المخصصة للجوامع والمدارس وغيرها، فلم يوافق شيخ الإسلام والقضاة الأربعة، بل قاوموا اقتراح السلطان «وأغلظوا له في القول»[٣] كذلك تمتع أغلب عناصر هذه الطبقة بثقة السلطان واحترامه، فكان لا يرد لهم كلمة ولا يرفض لهم مطلبًا، وكثيرًا ما قبل شفاعتهم في الأمور الجليلة.

وآية ذلك ما حدث في سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، حين أمر السلطان برقوق بعرض أجناد الحلقة[٤]، وكان الأجناد يتخوفون من هذا العرض كلما لجأ إليه

---

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٥ ص١٩٤، النجوم الزاهرة: جـ١٢ ص١٠٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٢١٣، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم ٢ ص٥٠٣.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٩٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٣٠٢ – ٣٠٣، ابن العماد: شذرات الذهب جـ٦ ص٢٩٣ – ٢٩٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ق٢ ص٣٨٦.

(٤) أجناد الحلقة: محترفو الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهم أقرب فئات المماليك إلى الجيوش النظامية في العصور الحديثة، ومرتباتهم من ديوان الجيش، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٣٨٧.

السلطان[١]، لما يحدث فيه من حرمان بعضهم من الإقطاعات أو الإنقاص منها، فسعى الأمراء لدى شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني باعتباره موضع ثقة السلطان، ليشفع لهم في إبطال هذا العرض، فقبل السلطان شفاعة البلقيني وأبطل هذا العرض[٢].

ولا يخفى أن مرد هذه الثقة وهذه المكانة السامية التي حظى بها كثير من العلماء، إنما يرجع إلى السلوك القويم الذى انتهجه كثير منهم، فلم ينافقوا ولم يلتمسوا المبررات الشرعية التي تخدم مصالحهم، وتضمن بقاءهم في مناصبهم، وثمة شواهد كثيرة تؤيد ذلك، من ذلك ما أشارت إليه المصادر المعاصرة من أن أحد الأمراء مات في عهد برقوق وورثه مولاه، فادعى برقوق قرابته له وأنه الوريث الشرعي لهذا الأمير، فتوقف الشيخ عبد الواحد المصرى مباشر توقيع الحكم وقتئذ حتى تثبت له صحة هذه الدعوى، وحين ثبتت صحة الدعوى بالطريق الشرعي وقبض برقوق الميراث، أعطى منه للشيخ المذكور ثلاثة آلاف درهم، فامتنع من أخذها، معتذرا بأنه ما ساعده إلا لله تعالى، فحسن اعتقاد برقوق فيه[٣]، وولاه فيما بعد وظيفة كتابة السر، وهى من الوظائف الديوانية الرفيعة.

وهذه الصور المشرقة من مواقف العلماء هى التي جعلت السلطان برقوق يتقرب إليهم، وينـــزلهم من نفسه مَنْـــزلة سامية، فلا عجب بعد ذلك أن يَنْـــزِل السلطان من القلعة ليعود الشيخ أكمل الدين البابرتى في مرضه، ثم يَنْـــزِل بعد ذلك حين يبلغه نبأ وفاته لحضور الصلاة عليه ويستمر ماشيًا أمام نعشه حتى يدفن، وقد حاول مرارًا أن يحمل النعش على كتفه، فحال الأمراء بينه وبين ذلك[٤].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٥٦١.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٥٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٩٥.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ قسم ٢ ص٥٢١، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ص٢٩٨، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٠٢.

على أن مواقف العلماء والقضاة وغيرهم لم تكن مضطردة هكذا طوال هذا العهد، بل تخلل ذلك بعض المواقف التي اتسمت بالنفاق ومهادنة السلطة، ولعل أشهر مثل لذلك الفتاوى التي أصدرها الفقهاء بشأن الأوقاف الخاصة بمدرسة الأمير جمال الدين يوسف الأستادار زمن السلطان فرج بن برقوق، حيث تغيرت صورة الفتاوى عدة مرات مهادنة للسلطة، مما جعل المقريزي يصف هذا الموقف بقوله: «فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمع به في تناقض القضاة وحكمهم بإبطال ما صححوه، ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه، كل ذلك ميلا مع الجاه، وحرصًا على إبقاء رياستهم»[١].

٣- أهل الذمة

إذا كان أهل الذمة قد تعرضوا لألوان من الاضطهاد حالت بينهم وبين تقلد الوظائف العامة في فترات منقطعة على عهد الحكومات المملوكية السابقة، فإنه لم يحل بينهم وبين تقلد هذه الوظائف مطلقًا في عهد كل من السلطان برقوق والسلطان فرج.

ويكفي أن الوزارة غدت في هذه الفترة تعرف بوزارة الأقباط[٢]، كما اختفت روح التعصب التي كانت تقصيهم عن الوظائف، وتفرض عليهم القيود في الملبس والمظهر، فكثيرًا ما أفاضت المصادر المعاصرة عن تكرر مثل هذه الأمور في عصر المماليك، من ذلك ما يشير إليه المقريزي من أن الظاهر بيبرس «أمر بحرق النصارى في سنة ٦٦٣هـ فتشفع فيهم على أن يحملوا خمسين ألف دينار فتركوا»[٣].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٤٠١ - ٤٠٣.
(٢) السيوطي: حسن المحاضرة جـ٢ ص٢١٦.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٣٠٢.

وأن النصارى في عهد السلطان قلاوون كانوا «يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم، ولا يجسر نصراني يحدث مسلمًا وهو راكب، وإذا مشى فينـــزله، ولا يقدر أحد منهم أن يلبس ثوبًا مصقولا»[١].

كذلك حرم عليهم قلاوون الالتحاق بالوظائف الحكومية، كما ألحق بهم أذى كثيرًا[٢].

وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون فرضت قيود مشددة على اليهود والنصارى، من حيث الملبس والمظهر العام[٣]، وصدرت أوامر الناصر بعدم استخدامهم بالدواوين، وهدد من يخالف هذه التعليمات بسفك دمه[٤].

ولم يكن إقصاء أهل الذمة عن الوظائف العامة ناتجا عن قيام بعضهم بأحداث الشغب فى كل الحالات، بل كان يكفى أن ينتقد وضع أهل الذمة وما هم عليه من ترف وتعال، من ذلك ما يشير إليه المقريزى في حوادث سنة ٧٥٥هـ من أن بعض كتاب النصارى مر أمام الجامع الأزهر راكبًا وخلفه طائفة من خدمه، فأثار هذا المظهر فريقًا من المسلمين واشتد غضبهم، وأنزلوه عن فرسه وكادوا يفتكون به، وقد ترتب على هذا الحادث إقصاء أهل الذمة عن الوظائف العامة بما في ذلك الديوان السلطانى ودواوين سائر الأمراء، وأن يحال بينهم وبين ذلك حتى بعد دخولهم في الإسلام[٥].

وكيفما كان الأمر فقد حرص السلطان برقوق منذ توليه السلطنة على إسناد الأعمال الديوانية إلى الأقباط، كما سار ابنه السلطان فرج على هذه السياسة من بعده، ولا شك أن ذلك يرجع إلى ما أثبته القبط من كفاءة في إدارة شئون الدولة بوجه عام، وإدارة الشئون المالية بوجه خاص، وإن اشترط عليهم في ذلك اعتناق

---

(١) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٤٩٧.
(٢) وليم موير: دولة المماليك ص٦٠.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٤٠٨.
(٤) المقريزى: السلوك جـ١ القسم الثالث ص٩١١.
(٥) المقريزى: المصدر السابق جـ٢ القسم الثالث ص٩٢٢ - ٩٢٤.

الإسلام، وسواء منهم من أسر دينه وادعى الإسلام أو جهر بالإسلام، فقد وصلوا إلى المناصب الهامة في الدولة، ومن هؤلاء شمس الدين إبراهيم القبطى المعروف بكاتب أرلان، الذى قلده السلطان برقوق الوزارة سنة ٧٨٥هـ وبالغ في إجلاله وتنفيذ كلمته على مرأى ومسمع من الأمراء حين «وضع السلطان يده على يد نفسه وقال للأمراء: انظروا إلى يد الوزير فقد جعلتها فوق يدى مبالغة منه فى تنفيذ كلمته»[١] ولم يزل يسوس شئون الوزارة بهذه السلطة الواسعة حتى تمكن من إنقاذ مالية البلاد، في الوقت الذى خلت فيه خزائن الدولة من المال[٢].

وظل في وظيفته بهابه الخواص والعوام، إلى أن توفى سنة ٧٨٩هـ، فترك خزائن الدولة عامرة بالأموال الوفيرة[٣].

كذلك كان سعد الدين إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب من بين الأقباط الذين اعتنقوا الإسلام، وتقلبوا فى الوظائف فى سلطنة الناصر فرج الأولى، حتى تقلد الوزارة ونظر الجيش وكتابة السر ثم الأستادارية[٤]، وكانت وظيفة الأستادارية من المناصب الرفيعة فى الدولة فى هذه الفترة، حيث كان لا يتقلدها غير العسكريين، ويعتبر ابن غراب هذا أول من تقلد هذه الوظيفة من غير العسكريين، ولم يقف الأمر به عند هذا الحد، بل صار فى سلطنة فرج الثانية من كبار الأمراء، كما عهد إليه بالإشراف على شئون الدولة، فازداد نفوذه، حتى إنه لما مرض، كان كبار الأمراء يعودونه وقوفا على أقدامهم حتى ينصرفوا[٥] «فنال في مرضه من السعادة ما لم يسمع بمثله لأحد من أبناء جنسه... وكانت جنازته أحد الأمور العجيبة بمصر، لكثرة من شهدها من الأمراء والأعيان وسائر أرباب الوظائف، بحيث استأجر الناس السقائف والحوانيت لمشاهدتها»[٦].

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٧٢.
(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافى (مطبوع) جـ١ ص٥٧.
(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٦١.
(٤) السخاوى: الضوء اللامع جـ١ ص٦٦.
(٥) السخاوى: الضوء اللامع جـ١ ص٦٦.
(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٤٢٠.

ولا أدل على سياسة التسامح التى اتبعتها الدولة تجاه الأقباط عامة فى مصر، من هذه الأنباء التى أوصلها بطاركتهم إلى مسامع إمبراطور القسطنطينية، يذكرون له حسن معاملة السلطان فرج لهم، الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى نفس الإمبراطور مما جعله يوجه رسالة إلى السلطان فرج فى سنة ٨١٤هـ، ومعها الهدايا الجليلة، ويوصيه فى هذه الرسالة بالبطاركة «وكذلك النصارى والكنائس على حكم معدلة السلطان ومحبته، والوصية بهم، ومعاونتهم وإجراؤهم على جارى عوائدهم، من غير تشويش على ما ألفوه من إنصافكم أولا وآخرا لأجل محبتكم لنا ومحبتنا، واستمرار العناية بهم، مع أن البطاركة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم، والإحسان إليهم، ولم يزالوا داعين له شاكرين من معدلته، ونضاعف شكرنا من إحسانكم على ذلك»[١].

وكان من أثر اعتماد الدولة على كتاب النصارى أن ازداد نفوذهم، فعاشوا عيشة مترفة، وانصرف كثير منهم إلى جمع الثروة، وأكثر ما يتضح بذخهم فى الحفلات التى يقيمونها فى منازلهم، من ذلك ما أشارت إليه المصادر من أن سعد الدين نصر الله بن البقرى القبطى الأسلمى ناظر الخاص، أقام حفلا فى داره فاجتمع نساؤه وأقاربه، وقد أخذوا فى التزين بكل ما يمكن من الثياب الحرير، وعليهم من اللؤلؤ والجوهر والذهب ما تجل قيمته، والمغانى تغنيهن، والخمور دائرة بينهن[٢] وحين صادرت الدولة ثروته بلغت قيمتها ثلاثمائة ألف دينار[٣].

وتمتعت بقية عناصر هذه الطبقة كذلك بالثراء والغنى، ولا أدل على ذلك مما خلفه بعضهم من ثروات طائلة، فيذكر عن فخر الدين بن سبع الخَلْوَتى، أنه لما توفى سنة ٧٩٢هـ، وجد لديه مليون ومائتا ألف درهم، كما وجدت له من الغلال والمواشى والرقيق ما تبلغ قيمته ضعف ذلك[٤].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص١٢١ - ١٢٢.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٥٠٠، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٧٧.
(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٧٧.
(٤) ابن حجر: أنباء الغمر جـ١: ص٤٠٢ - ٤٠٣.

كما تمتعت بطركية الأقباط في القاهرة بالثراء الوفير في تلك الفترة، فكانت تبذل بعض هذه الثروة في مساعدة الحجاج المسيحيين المارين بالقاهرة فى طريقهم إلى دير سانت كاترينا[١].

ومع أن الدولة قد أسندت وظيفة الوزارة وغيرها من الوظائف المالية إلى الأقباط، فإنها كانت لا تتردد في أخذهم بالشدة، فتصادر أموالهم وتعاقبهم إذا ما أساءوا التصرف، ولا يعد ذلك اضطهادا، فكثيرًا ما صادرت الدولة غير الأقباط، كما أنزلت بهم أشد العقوبات لنفس هذا المعنى.

كذلك لا تعد بعض الإجراءات التى اتبعت مع الأقباط في عهد السلطان برقوق على أنها عمل تعسفى أملته روح التعصب الدينى، لأنها إجراءات تتبعها الدولة مع كل من يحيد عن الطريق السوى، لا فرق في ذلك بين مسلم ونصرانى، فمثلا قام برقوق في سنة ٧٨٠هـ ـــ وهو يومئذ أمير كبير ـــ بهدم كنيسة للأقباط بناحية الجيزة وحوّلها مسجدًا، وكان الذى دفعه إلى ذلك إلى أصوات النواقيس كان يجهر بها فى ليلة الجمعة بهذه الكنيسة[٢].

على أن الأمر الجدير بالملاحظة أنه لم يترتب على هذا الحادث ما كنا نعهده قبلا من فرض القيود على النصارى في ملبسهم ومظهرهم وإقصائهم عن الوظائف العامة في مثل هذه الأمور.

٤ – التجـــار:

ساهمت طبقة التجار فى بناء المجتمع المصرى مساهمة فعالة، وقد أدرك السلطان برقوق ما لهذه الفئة من أهمية بالغة في بناء الدولة، باعتبارها المصدر الأساسى الذى يمد الدولة بالمال عندما تدعو الحاجة، وأقرب مثل لذلك ما لجأ إليه السلطان برقوق فى سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م، عندما اقترض من التجار مبلغ مليون درهم، لتجهيز الحملة الحربية المتجهة إلى الشام لقتال تيمور لنك[٣].

---

(١) Doppe. Op. Cit. P.P: 31 – 32.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٥٠٧.

(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٨٦، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٦٨.

فلا عجب أن يعمد السلطان برقوق إلى تقريب هذه الفئة منه وخاصة التاجر الكارمى، الذى ظل محتفظًا بمكانة ممتازة طوال عهد السلطان برقوق وابنه السلطان فرج.

فيذكر عن أبى بكر الخروبى التاجر الكارمى زمن السلطان برقوق، أنه «كان رئيسًا ضخمًا... وعظم قدره في الدولة»[١].

كذلك كان برهان الدين المحلى التاجر الكارمى أيام السلطان برقوق معظمًا عند الدولة[٢].

ومن مظاهر احترام التجار الكارمية فى تلك الفترة إكرام السلطان برقوق لهم بالإنعام عليهم بالخلع الثمينة، تقديرًا لجهودهم ومساهمتهم فى خدمة المجتمع[٣].

وتمتعت بقية عناصر هذه الطبقة من التجار عامة بالثراء العريض[٤]، كما تميز كبارهم وأثرياؤهم من أرباب التجارة الداخلية باسم «بياض الناس» وهى الصفة التى أطلقت على تجار العنبر، الذين أشار إليهم المقريزى بقوله: «ولهم أموال جزيلة، وفيهم رؤساء وأجلاء»[٥].

كذلك تميز تجار سوق المهامزيين وسوق الحوائصيين باسم «بياض العامة»[٦] وهى الصفات التى نعت بها أيضًا كبار التجار فى هذه الأسواق، نظرًا لما يتمتعون به من الثراء الوافر كذلك.

وساهم كثير من التجار بنصيب وافر فى مجالات البر والخير، فمدوا يد المعونة للمجتمع فى أوقات الشدة، كما وجهوا عنايتهم إلى المؤسسات الخيرية والدينية بمصر والحرمين، وحسبنا أن نلمح كثيرًا من هذه الجوانب فى العبارات التى يوردها

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٠٦.
(٢) ابن حجر: المصدر السابق جـ٢ ص٢٧٠.
(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٨٦.
(٤) ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٦٦ - ٦٧.
(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص١٠٣.
(٦) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٩٨ - ٩٩.

المؤرخون أثناء الترجمة لهؤلاء، فمثلا كان جمال الدين يوسف بن أحمد التاجر المتوفى سنة ٧٨٥هـ «له إحسان وإفضال ولا يتشدد في تقاضي ماله من الدين، ويتصدق»[١] كذلك أوصى التاجر المشهور زكى الدين الخروبى المتوفى سنة ٧٨٧هـ «بأشياء كثيرة في وجوه البر والقربات، منها للحرمين ألفا مثقال ذهبًا»[٢] كما أوصى على بن عبد العزيز أحد أعيان التجار بمصر زمن السلطان برقوق «بمائة ألف درهم فضة لعمارة الحرم المكى، فعمر بها بعد الاحتراق»[٣].

كذلك أسهم ذوو اليسار من التجار في بناء المؤسسات التعليمية والخيرية بمصر، كما رصدوا لها الأوقاف الجليلة[٤].

٥- العـــوام:

وشملت هذه الطائفة أصحاب الحرف الدنيا كالأساكفة وغاسلى الموتى والباعة المتجولين ونحوهم[٥]، كما شملت هذه الفئة الزعر[٦] والمساكين من السؤال[٧]، واكتظت القاهرة بهذه العناصر، كما استعانت بها القوى المتصارعة على السلطة، فكانت العامة تؤازر المنتصر، حتى إذا ما لاحت علامات النصر فى جانب الفريق الآخر انضموا إليه، وهكذا كان هدفهم هو تحقيق أكبر قسط من الكسب عن طريق نهب بيوت المنهزمين.

ففى ثورة يلبغا ومنطاش ضد السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ، استعان برقوق بالعوام، فدفع إلى أحد أمرائه جملة من المال ليفرقها «فى الزعر وحملة السلاح من

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٨٧.
(٢) ابن حجر: نفس المصدر والجزء ص٣٠٦.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٥ ص٢٤٠.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٣٦٨، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٨٥.
(٥) طرخان: النظم الإقطاعية ص٣١٠.
(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص١٠٩، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٢٠٣ واستعملت كلمة الزعر في العصر المماليكى لتدل على المفسدين وقطاع الطرق واللصوص الذين يتعرضون للمارة، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٤٢٩.
(٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٧٢.

العامة، تقوية لهم ليقاتلوا مع العسكر»[١] ثم عاد السلطان مرة أخرى عندما اقترب الثوار من القاهرة وبدر على العوام فضة وذهبا جزافا»[٢].

وعندما لاحت علامات النصر في جانب الفريق الثائر، انصرف العوام عن برقوق وانقلبوا ضده ونهبوا ما حوله[٣].

وفى أثناء المجاعات كان للمساكين والمعدمين نصيب من عطف السلاطين تخفيفًا عنهم، كذلك عرف عن السلطان برقوق أنه تحمل العبء عن الفقراء بالتوسع في الصدقة والإحسان إليهم طيلة مدة الغلاء فى سنة ٧٩٧هـ، بحيث لم يمت أحد بالجوع في أيام هذه المحن[٤].

٦- الفلاحـــون:

أما طبقة الفلاحين فقد ظلت كما هى فى علاقتها بالأرض، تفنى حياتها في ظل النظام الإقطاعى الذى لا يترك لها من خيراتها إلا النذر اليسير.

وفى عهد السلطان فرج زاد حال الفلاحين سوءًا، نتيجة لكثرة المغارم والمظالم التى حلت بهم[٥]، مما دفع بالكثير منهم إلى الجلاء عن أوطانهم والهجرة إلى المدن[٦].

٧- الأعـــراب:

دأبت المصادر المعاصرة للسلطان برقوق على وصف هذه الطبقة دائمًا بالمفسدين[٧]، نظرًا لما ارتبط به تاريخ هذه الطبقة بالثورات ضد السلطة الحاكمة والاعتداء على الآمنين من أهل الريف والمدن قتالا وسلبا.

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٦٠٨.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٢٠٦.

(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٦١٥.

(٤) المقريزى: إغاثة الأمة ص٤٤ – ٤٥، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٥٠٧ – ٥٠٨.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٩٨.

(٦) المقريزى: إغاثة الأمة ص٤٤.

(٧) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٤١٥، العينى: عقد الجمان جـ٢٤ القسم الأول ورقة ١٠٠.

وقد حاول السلطان برقوق بعد أن ازدادت ثوراتهم على عهده أن يكبح جماحهم، فاستحدث نيابة بالوجه البحرى وأخرى بالوجه القبلى[١].

وبالرغم من أن السلطان برقوق استطاع أن يحد من نفوذهم بعض الشيء، فإن ذلك لم يمنعهم من الاشتراك في المؤامرة التى دبرها الخليفة المتوكل سنة ٧٨٥هـ والتى كان الهدف منه القضاء على سلطنة برقوق[٢].

كذلك لم يمنعهم من الإغارات على المدن الكبرى، فقد هاجموا مدينة أسوان سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م وسلبوا ما بها كما قتلوا معظم أهلها[٣].

ونظرا لما عرف عن العربان من ازدياد مؤامراتهم وكثرة اعتداءاتهم في أوقات الحرج والخطر الخارجى، فقد عمدت الحكومة في مثل هذه الظروف إلى إرسال تعزيزات عسكرية إلى مناطق تجمعات العربان لحفظ الأمن بها، فمثلا عندما رحل السلطان برقوق إلى بلاد الشام سنة ٧٩٣هـ لتأديب الثائرين بها، عيَّن نائبه بالقاهرة نحو مائتى جندى وأمرهم بالتوجه إلى جهة الصعيد ليعسكروا هناك[٤]، وفى نفس الوقت عين النائب مثل هذا العدد وأمرهم بالتوجه إلى بلاد الوجه البحرى[٥].

على أن فساد العربان قد ازداد في عهد السلطان فرج، نتيجة انشغاله بمحاربة الأمراء الخارجين عن الطاعة بالشام، فثار عربان الصعيد سنة ٨٠٤هـ وقتلوا كاشف الوجه القبلى كما قتلوا من جنوده نحو مائتى نفس، وقاموا بنهب جميع ما معهم من الأثقال والجمال[٦].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٤ - ٢٥.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٩٣ — ٤٩٥، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٧٥ — ٢٧٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٣٤ — ٢٣٥، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٦٩ — ٧١، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٣٢ - ٣٣٣.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٠٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١١٩.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٤٧.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٣٣.

(٦) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١٠٨٩، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص١٤٧.

كذلك ذكر بيلوتى أن الإسكندرية ظلت مدة تحت رحمة العربان نتيجة سيطرتهم على الطريق الذى يربطها بالقاهرة[١].

أما عن حياة مشايخ العربان وزعمائهم فيبدو مما ذكرته المصادر، أن الكثير منهم تمتع بالثروة والغنى، فيذكر أن إسماعيل بن مازن الهوارى أحد أكابر العرب بالصعيد زمن السلطان برقوق، مات «وخلف أموالا كثيرة جدًا»[٢].

ثانيًا: الملابس:

أما الملابس التى ميزت طبقات المجتمع المختلفة، فقد ظل رجال السيف يحافظون على لباس الرأس الذى انتقل إليهم من أيام الأيوبيين، الذين دأبوا على تغطية رءوسهم بكلوتات صفر، كانت تتخذ من الصوف المضرب بالقطن، وتلبس دون عمامة حولها[٣]، ومرت هذه الكلوتات فيما بعد بمراحل مختلفة، فكانت عرضة لتحويرات وتغييرات، اقتضتها الطرز المستحدثه فتغير لونها زمن خليل بن قلاوون من الصفرة إلى الحمرة، كما جعلت العمائم من فوقها[٤].

وفى عهد السلطان الناصر محمد استحدثت العمائم الصغيرة وهى التى عرفت بالعمائم الناصرية، ثم زيد في قدر هذه العمائم زمن السلطان شعبان بن حسين، وظلت هكذا حتى عهد السلطان برقوق[٥]، فبالغوا على عهده «فى كبر الكلوتات» وصارت تسمى بالكلوتات الجركسية[٦].

وكان لبس العمامة حتى أيام السلطان برقوق يعتبر أمرًا قوميا، ويعد نزعها عن الرأس «عارا وفضيحة» ثم شاع بين رجال الدولة من الأمراء والأجناد على

---

(١) Doppe. Op. Cit. P.P. 19 – 20.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٣٩.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٣٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٣٣٠.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٤٠، المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٩٩، ماير: الملابس المملوكية ص٥٣.

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٤٠، المقريزى: المصدر السابق جـ٢ ص٢١٧.

(٦) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٢١٧.

عهد السلطان فرج بن برقوق، لبس الطواقى بغير عمامة[١]، وذلك على أثر نزول السلطان فرج من القلعة ومروره بالقاهرة، وهو لا يرتدى الكلفتاه أو القماش، وسمح لأمرائه أن ينهجوا نهجه[٢]، فصار رجال الدولة يمرون هكذا في الشوارع والمواكب ولا يرون بذلك بأسًا، كذلك تنوعت هذه الطواقى ما بين خضر وحمر وزرق وغير ذلك من الألوان[٣].

أما ثياب المماليك فكانوا يرتدون فوق القميص الأقبية التترية[٤] ومن فوقها التكلاوات، ثم يرتدون فوق ذلك كله القَبَاء الإسلامى الذى يشد عليه السيف من الجانب الأيسر، كما يشد عليه الصولق[٥] من الجانب الأيمن[٦]، ويلبس الأمراء وأعيان الجند أقبية قصيرة الأكمام فوق القباء، ولكن أكمامها أكثر اتساعًا من أكماء القباء التحتانى الضيقة[٧].

وفى فصل الصيف كانت جميع الملابس الفوقانية للمماليك هى الملابس البيضاء، أما في الشتاء فملابسهم من الأصواف الملونة المبطنة بفراء السنجاب، وتميز كبار الأمراء باستعمال الملابس الثمينة من أنواع السَّمّور ونحوه[٨].

وكانت ملابس أرباب الوظائف الدينية تختلف باختلاف مراتبهم، فالقضاء والعلماء يتميزون بلبس العمائم الكبار، ومنهم من يجعل طرف عمامته طويلاً مسترسلاً بين كتفيه[٩].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص١٠٤.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص٦٨، ماير: الملابس المملوكية ص٣٣.
(٣) المقريزى: المصدر السابق جـ٢ ص١٠٤.
(٤) يستدل من أسماء المعاطف التترية أن هذا الثوب كان من أصل أجنبى، وهو لباس مثل القفطان، وقد سمى كذلك، لأنه يخالف القفطان التركى في كون جانب صدره اليسار يلف فوق الجانب اليمين بعكس التركى (ماير ـــ الملابس المملوكية ص٤٠).
(٥) الصولق: مخلاة من الجلد يضعها الشخص في حزامه (المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٩٨.
(٦) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٤٠.
(٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢١٧.
(٨) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة، ماير: الملابس المملوكية ص٤٦ - ٤٧.
(٩) القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص٤١ — ٤٢، ماير: المصدر السابق ص٩٠.

كذلك كان من المألوف أن يرتدى القضاة والعلماء فوق ملابسهم دلْقا[١] متسع الأكمام، وهو مفتوح فوق الكتفين ولكنه بدون فتحة خلفية ويكون هذا الدلق مسترسلا حتى القدمين[٢].

وكان رجال الدين من الطبقة الأدنى أكثر أناقة في عمامتهم، كما كانوا يرتدون بدل الدلق فرجية مفتوحة من الأمام من أعلاها حتى الذيل، وبها صف من الأزرار[٣].

وامتاز قاضى القضاة بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره[٤]، كذلك كان من بين الملابس الخاصة برجال الدين الزى الأسود لخطيب الجمعة، ويتكون من دلق، أسود وشاش[٥] أسود وطرحة سوداء، رمزًا للشعار العباسى[٦].

وتميز الأشراف — وهم سلالة على بن أبى طالب — بوضع علامة خضراء فى عمائمهم[٧].

وأما الوزراء ومن على شاكلتهم من أرباب الوظائف الديوانية فيلبسون الفراجى المضاهية لفراجى العلماء، وربما لبسوا الجباب المفرجة من الخلف[٨]، كما لبسوا على رؤوسهم القُبْع[٩] الزركش[١٠].

---

(١) الدلق: رداء كالعباءة يلبسه الدراويش والمتصوفة، دوزى: الملابس عند العرب ص١٥١.

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص٣٢٠، ماير: الملابس المملوكية ص٩١.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٤٢، ماير: الملابس المملوكية ص٩١.

(٤) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة، السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص٣٢٠، ماير: المصدر السابق ص٩٣.

(٥) الشاش: عبارة عن قماش رقيق يلف حول العمامة، دوزى: الملابس عند العرب ص١٩٧.

(٦) السيوطى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٧) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص١٠ — ١١، المقدسى: نزهة الناظرين ورقة ٤٩، ماير: الملابس المملوكية ص٩٧.

(٨) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٤٣.

(٩) القبع غطاء للرأس شبيه بالطاقية، دوزى: الملابس عند العرب ص٢٧٩.

(١٠) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٧٢.

وكان من المألوف فى أيام السلطان برقوق أنه يرتدى رجال الدين والوزراء ونظار الجيش وغيرهم الملابس القطنية البيضاء فى فصل الصيف، أما فى فصل الشتاء فكانوا يرتدون معاطف من الصوف الأبيض[١].

وقد ظل هذا التقليد متبعا حتى سنة ٧٩٩هـ، عندما استأذن كاتب السر بدر الدين الكلستانى السلطان برقوق له ولجميع المتعممين أن يلبسوا الصوف الملون، فأذن لهم السلطان[٢].

وقد لاحظ المقريزى وهو في دهشة أن القاضى شرف الدين محمد بن الدماميني أحد نظار الجيش زمن السلطان برقوق، كان يسير فى موكب رسمى وهو يرتدى جبة ملونة وطرف عمامته يسترسل من خلفه[٣].

أما أهل الذمة من النصارى واليهود فكانوا يلبسون العمائم الملونة التى كان يمكن بها تمييزهم عن المسلمين، فلبس النصارى العمائم الرزق، ولبس اليهود العمائم الصفر[٤].

وكانت الطبقات الدنيا من الشعب تلبس الطاقية، دون أن تستعمل شيئًا آخر معها[٥]، ويبدو أن ملابس الفلاحين كانت قريبة مما نراه اليوم من الثياب الزرقاء واللبد الصوف فوق رءوسهم[٦].

كذلك كان العربان يرتدون «كاملية مفرجة وعمامة بلثامين»[٧].

وكان طبيعيا في مجتمع ترتدى فيه كل طبقة زيا مميزًا متباينًا، أن يرتدى رجال القلم الزى العسكرى إذا ما حصل أحدهم على رتبة عسكرية، فمثلا عندما صار

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٨٧٥ - ٨٧٦.
(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٥٢٦.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٨٧٥.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٤٠٨.
(٥) ماير: الملابس المملوكية ص٩٠.
(٦) عاشور: المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص٢١٧.
(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٠ ص٦٧.

إبراهيم بن غراب أميرًا زمن السلطان فرج، ترك ملابس رجال القلم وارتدى الأزياء العسكرية «فلبس الكَلَفْتَاه وتقلد بالسيف[١].

ولمة ملاحظة أخيرة على الملابس في ذلك العصر، وهى أنه كلما حدث تغيير فى مقومات المجتمع المملوكى بالانغماس في الترف والرفاهية، ازداد شيوع استعمال الأزياء النفيسة والمواد النادرة، إلى أن تبدأ في المجتمع مرحلة انهيار اقتصادى يترتب عليها حدوث تغيير سريع بترك استعمال الملابس الثمينة واللجوء إلى أخرى أكثر رخصًا. وهذا ما يفسر شيوع استعمال رجال الدولة من الأمراء والمماليك في عهد برقوق للفراء والكماليات النفيسة من أنواع السمور والوشق وغيرهما، بعد أن كان استعمال ذلك في العهود السالفة «من أعز الأشياء التى لا يستطيع أحد أن يلبسها»[٢] حتى إذا ما بدأت مرحلة الانهيار الاقتصادى في عهد السلطان فرج بن برقوق، وارتفعت أسعار الملابس «دعت الضرورة أهل مصر إلى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه، وصار معظم الناس يلبسون الجوخ» وقلما كان يوجد من الناس من يلبس الجوخ قبل ذلك، استهجانا له لتصنيعه في عمل المقاعد وسروج البغال ونحوها، فصار يلبسه الأمير والوزير والقاضى ومن دونهم[٣]، بل كان السلطان فرج نفسه يرتدى الجوخ من وقت لآخر[٤].

ثالثًا: الأعياد الدينية والقومية:

ظلت الأعياد طوال عهد السلطان برقوق حافلة بمظاهر البهجة التى كانت تسودها في العهود السالفة أيام الفاطميين والأيوبيين، واشترك فيها السلطان وكبار رجال الدولة، كما شارك فيها الشعب كذلك، واقترن بعض هذه الأعياد بالعطايا والصدقات التى اعتاد السلطان برقوق توزيعها على الفقراء والمعوزين طوال أيام

---

(١) أبو المحاسن: المصدر السابق جـ١٣ ص١٥٦.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص١٠٣.
(٣) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٩٨.
(٤) ماير: الملابس المملوكية ص٤٦.

سلطنته، كما اقترن بعضها بحدوث المفاسد وازدياد العبث واللهو، مما حدا بالحكومة في كثير من الأحيان إلى التدخل لمنع هذه المفاسد.

ومن أمثلة الأعياد الدينية الاحتفال بالمولد النبوى بالقلعة، فكان السلطان برقوق يقيم بهذه المناسبة حفلاً عاما يحضره شيخ الإسلام وقضاة القضاة الأربعة وشيوخ العلم، والأمراء.

وجرت العادة فى مثل هذه المناسبة أن ينعم السلطان برقوق على القراء والمنشدين بعد فراغهم من القراءة والإنشاد، فيدفع لكل واحد منهم أربعمائة درهم فضة[١]، كما ينعم على كل أمير بشقة من الحرير[٢].

وجرت العادة أن يمد السلطان برقوق في هذه المناسبة الأسمطة الهائلة، وفيها «من الأطعمة الفاخرة ما يستحى من ذكره كثرة، بحيث إن بعض الفقراء إخذ صحنا فيه من خاص الأطعمة الفاخرة فوزن الصحن المذكور فزاد على ربع قنطار»[٣] ثم يستمر الإنشاد من بعد ثلث الليل حتى الفجر[٤].

وكان السلطان برقوق يحضر بنفسه هذا السماع، كما يقوم بتوزيع الصدقات بنفسه، فكان الخازندار يأتيه بأكياس المال ويضعها بين يديه لتوزيعها على الفقراء والصوفية «حتى قيل: إنه فرق في الفقراء ومشايخ الزوايا والصوفية فى تلك الليلة، أكثر من أربعة آلاف دينار»[٥].

وقد استمر الاحتفال بالمولد النبوى على هذه الصورة طوال أيام السلطان برقوق[٦]، واحتفل السلطان فرج بن برقوق بالمولد النبوى على عادة أبيه فى أوائل سلطنته فقط[٧].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٢٩.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٩٤.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٧٣.
(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٨٩١، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٩٤.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٧٤.
(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٢٩، السندوبى: الاحتفال بالمولد النبوى ص١١٠.
(٧) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٥٨، ٥٩٥.

كذلك حرص عامة الشعب على إحياء هذه الذكرى الكريمة في بيوتهم عن طريق الأناشيد المصحوبة بالآت الطرب[١].

ويحتفل الناس كذلك في النصف الأخير من شهر رجب بدوران المحمل، فتزيّن الحوانيت والأسواق بشقق الحرير والحلى وغيرهما، كما تظل القناديل والشموع مسرجة أمام الحوانيت طوال الليل[٢].

ويعتبر الظاهر بيبرس أول من استحدث دوران المحمل في سنة ٦٧٥هـ، واستمر ذلك من بعده[٣]، فلما كانت أيام السلطان برقوق استحدث للمحمل في أوائل سلطنته «ثوب حرير أصفر بشمسات[٤] زركش... فجاء أحسن ما عهد قبل ذلك»[٥] كما نقش اسمه في وسط الحلى المستديرة التي زين بها المحمل[٦].

أما سفر المحمل والحجاج إلى الحجاز فيكون في منتصف شوال[٧]، ويكون على رأس المحمل قائد يسمى «أمير الحاج» وهو عادة من أمراء المئين، وفي بعض الأحيان يتولى إمرة الحاج أمير عشرة، أو أمير الطبلخانه السلطانية[٨]، ويتولى الإشراف على القافلة التي تضم عددًا كبيرًا من الحجاج والجمال التي تحملهم وتحمل أمتعتهم[٩].

---

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص١٦٨.

(٢) ابن الحاج: المدخل جـ١ ص٢٦٦ - ٢٦٩.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة جـ٢ ص٢٩٦، ابن إياس: بدائع الزهور. جـ١ القسم الأول ص٣٣٦.

(٤) الشمسات حلى مستديرة على هيئة الشمس، تزين بها الثياب ونحوها، ويغلب أن تكون من القصب.

Dozy: Supplement aux dictionnairés arabes art.

(٥) المقريزي: السلوك جـ٣ القسم الثاني ص٤٩٧.

(٦) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٧٤.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٥٨، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثاني ص٦٢٩.

(٨) الرشيدي: حسن الصفا ورقة ٣٩.

(٩) Doppe: Op. Cit. P.P. 44 - 45.

وعرف عن السلطان برقوق مساهمته فى تخفيف مشقة السفر على الحجاج، فقد كان فى هذه الناحية «كثير الصدقات، أوقف ناحية بمتيت على سحابة[١] تسير مع الحج إلى مكة فى كل سنة، ومعها جمال تحمل المشاة من الحاج وتصرف لهم ما يحتاجون إليه من الماء والزاد ذهابا وإيابا»[٢] كما شمل بره بلاد الحجاز، فكان يبعث فى كل سنة إلى الحجاز ثلاثة آلاف إردب قمحا، تفرق فى الحرمين[٣].

وكان يحتفل بمواسم شهر رجب وشهر شعبان زمن السلطان برقوق، وسط مظاهر البهجة والرفاهية، حيث يزخر سوق الحلاويين فى هذه المناسبة بأشكال الحلوى، وقد وصف لنا المقريزى هذه المظاهر التى شاهدها بنفسه أيام السلطان برقوق فقال: «كان هذا السوق فى موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظرا، فإنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها... فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده، وتمتلئ أسواق مصر والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف، وكذلك يعمل فى موسم نصف شعبان»[٤].

أما شهر رمضان فقد ازداد اهتمام السلاطين فيه بالتوسع فى الصدقة، وعرف عن السلطان برقوق أنه كان يذبح طوال أيام سلطنته فى كل يوم من أيام رمضان خمسًا وعشرين بقرة، يتصدق بلحومها ومعها من الخبز آلاف الأرغفة، فكانت توزع على أهل الجوامع والخوانق والربط والسجون، بحيث يخص كل فرد رطل من اللحم المطبوخ ومعه ثلاثة أرغفة، عدا ما كان يفرق من الزوايا، فكان يعطى لكل زاوية خمسين رطلاً من اللحم الضأن[٥].

---

(١) السحابة هى خيمة يستظل بها الحجاج عند نزولهم (الرشيدى: حسن الصفا ورقة ٣٧).
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٠٨ - ١٠٩.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٣١.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص١٠٠.
(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣٣٢.

وكان من مظاهر البهجة بشهر رمضان زمن السلطان برقوق، إحياء لياليه بالشموع الموكبية الكبيرة الحجم التى تزخر بها حوانيت سوق الشماعين في موسم رمضان، والتى يبلغ وزن الواحدة منها القنطار «كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح، فيمر في ليالى شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه»[١].

أما الحوانيت والأسواق الأخرى الخاصة بالأطعمة والمطابخ، فهذه كانت تفتح أبوابها طوال شهر رمضان إحياء لِيَاليه[٢].

واحتفلت الدولة رسميا بالعيدين، فكان السلطان برقوق يَنْـزِل إلى الجامع أو الميدان بالقلعة لتأدية صلاة العيد مع كبار رجال الدولة ثم يمنحهم التشاريف بهذه المناسبة[٣].

وتبدو مظاهر البهجة والاحتفاء بعيد الفطر في كثرة المعروض بالأسواق من حاجيات هذا العيد، ويشير المقريزى إلى هذه المظاهر التى شاهدها بنفسه في سوق الحلاويين زمن السلطان برقوق، بقوله: «وكانت تروق رؤية هذا السوق في موسم عيد الفطر، لكثرة ما يوضع فيه من حب الخُشْكنانج وقطع البسندود[٤]، ويشرع في عمل ذلك من نصف شهر رمضان فتملأ منه أسواق القاهرة ومصر والأرياف»[٥].

وكانت أهم المواطن التى يهرع إليها الناس في العيد للاستمتاع القرافة والنيل، حيث يقبلون على أنواع اللهو، ويتفننون فى ألوان الملذات[٦].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٩٦.

(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصرى في عصر المماليك ص١٨٥.

(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٩٠٩، ٩٣٥، الخطط جـ٢ ص٢٢٩.

(٤) كذا في الأصل، وفى صبح الأعشى جـ٣ ص٥١٠ «الخشكنان والبستندُود، وغير ذلك مما يعمل في العيد» والخشكنان، ويعرف في مصر بالخشتنان، نوع من الحلوى مصنوع من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يملأ وسطها باللوز أو الفستق، أما البستندود، فأصله بالفارسية (بشندة): طعام فارسى مصنوع من دقيق وبلح، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣ ص٥١٠ حاشية رقم ١، ٢.

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص١٠٠.

(٦) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٩٣٥.

ولم يكن عيد الأضحى يقل بهجة في الاحتفال به عن عيد الفطر، وفيه يوزع السلطان الأضاحي الكثيرة، ويكون ذلك بالحوش من القلعة، حيث توزع الأضاحي على الأمراء وسائر أرباب الدولة من القضاة والأعيان، وكذلك المماليك السلطانية[١]، كما توزع الأضاحي أيضًا في جهات البر من الجوامع والمدارس والزوايا والمشاهد وغيرها[٢].

أما الأعياد القومية فاشتركت في إحيائها سائر الطوائف، فكان السلطان برقوق ينزل من القلعة في موكب حافل زمن الفيضان لكسر السد[٣]، كما يهرع الناس إلى النيل حيث يستأجرون السفن في هذا اليوم للمشاركة في هذا العيد وسط مظاهر الفرح والبهجة[٤].

وقد أشار المقريزى في حوادث سنة ٧٨٥هـ، إلى أنه «لم يعهد بعد الملك الظاهر بيبرس ملك ركب حتى خلق المقياس، وفتح الخليج، سوى السلطان برقوق»[٥].

ومن الأعياد القومية كذلك عيد النيروز، وهو أول السنة القبطية، وتشترك فيه سائر الطوائف كذلك[٦]، وجرت العادة في الاحتفال بهذا العيد في العهود السالفة، أن يعمل موكب يسمى موكب «أمير النيل» ويسير في هذا الموكب أسافل العامة وأوباشهم، فيتوجهون إلى بيوت الأكابر، ويفرض أمير الموكب على تلك الدور مبلغا من المال، فإن امتنع أحد أصحابها من الاستجابة لأعضاء الموكب أهانوه وسبوه، ولا يزالون كذلك حتى يأخذوا منه ما قرروه عليه طوعًا أو كرها، كذلك تقف طائفة منهم ويتراشون بالماء المتنجس أو بالخمر[٧].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٦٣١.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١٠٦٧.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٧٣، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص٢٠٠.

(٤) Dopp. Op. Cit. 20 – 21.

(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٩١.

(٦) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص٢٠١.

(٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص٢٦٩٠، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٦٣ – ٣٦٤.

وجرى الأمر على هذه العادة إلى أن كانت سنة ٥٩٢هـ، وهى التى ذكر القاضى الفاضل فى متجدداتها أن الأمر جرى فيها على العادة من رش الماء، غيره أنه استجد فى «هذا العام التراجم بالبيض والتصافح بالأنطاع»[١].

وما زال عيد النيروز يعمل فيه ما ذكر إلى أن كانت سنة ٧٨٧هـ فأمر السلطان برقوق بإبطال ذلك وهدد من يفعله[٢].

وثمة ملاحظة أخيرة على مظاهر البهجة والترف فى هذه الأعياد، وهى أنه كلما حدث تغيير فى مقومات المجتمع المملوكى بالانغماس فى الترف ازدادات مظاهر البهجة بهذه الأعياد، كتلك المظاهر التى ظلت تسود المجتمع زمن السلطان برقوق من احتفاء أهل الريف والمدن حتى الطبقات الدنيا، بمواسم شهرى رجب وشعبان، حيث يقبلون على شراء تماثيل الخيل والسباع المصنوعة من السكر ابتهاجًا بتلك المواسم[٣].

وكذلك إحياء ليالى رمضان بالمواكب التى تسير بالشموع الضخمة، التى «تحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه»[٤] حتى إذا ما بدأت مرحلة الانهيار الاقتصادى فى المجتمع زمن السلطان فرج بن برقوق، بطلت هذه المظاهر، و «تلاشى الحال لفقر الناس وعجزهم»[٥].

رابعًا: المؤسسات التعليمية:

كانت نظرة المماليك إلى التعليم على أنه عمل من أعمال البر والخير، ولذلك كانت عنايتهم بتلك المؤسسات تفوق فى كثير من الأحيان عنايتهم بقصورهم ومنشآتهم الدنيوية، وحاكاهم فى هذا الشأن أمراؤهم.

---

(١) المقريزى: نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٦٥.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص١٠٠.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٩٦.
(٥) المقريزى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

وقد امتازت الفترة التى حكم فيها السلطان برقوق بكثرة المدارس والمؤسسات الخيرية المختلفة، ولا أدل على ذلك مما حكاه القلقشندى الذى عاصر بناء هذه المؤسسات، حيث أورد بعد وصفه لمدرسة السلطان برقوق التى تم بناؤها سنة ٧٨٨هـ، عبارة «وفى خلال ذلك ابتنى أكابر الأمراء وغيرهم المدارس مملأ الأخطاط وشحنها»[١].

وتعتبر مدرسة برقوق هذه من أشهر المدارس في الدولة المملوكية الثانية قاطبة.

وقد بدأ السلطان برقوق في وضع أساسها في شهر رجب سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م بين القصرين، وأتم بناءها في شهر رجب سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م[٢].

وكانت العادة المتبعة عند الفراغ من بناء مدرسة أن يحتفل بافتتاحها، ولذلك عندما تم بناء هذه المدرسة، نزل إليها السلطان برقوق من القلعة في موكب حافل، وسط فريق من كبار الأمراء وأعيان الدولة، وقد اجتمع بها القضاة والعلماء، حيث مد سماط[٣] زاخر بأنواع الأطعمة الفاخرة من لحوم الأوز والدجاج والخراف والأسماك، دعى إليه القضاة والفقهاء والأعيان والأمراء، وكذلك الفقراء والضعفاء، ثم مد بعد ذلك سماط آخر زاخر بالحلوى والفواكه، كما ملئت الفسقية التى بصحن المدسة بمشروب السكر والليمون، وفرق على الناس بالطاسات[٤].

ثم أغدق السلطان برقوق الهبات على الشيخ علاء الدين السيرامى الحنفى، وكان قد استدعاه من بلاد العجم ليتولى مشيخة المدرسة وتدريس الفقه الحنفى بها[٥].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣ ص٣٦٤.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣١٣.

Van Berchem: Op. Cit. P. 293.

(٣) السماط: المائدة، ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين، سعيد عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام ص٤٢٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٧٢.

(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٥٤٧.

كذلك أغدق السلطان برقوق في ذلك اليوم على جميع من أسهم في بناء هذه المدرسة من الأمراء والمهندسين والمرخمين والنجارين وغيرهم[١]، فخلع على الأمير جركس الخليلي «شاد العمائر»[٢] الذى أشرف على بناء المدرسة خلعة جليلة[٣]، كما خلع على كبير المهندسين أحمد الطولوني، كذلك قدم لكل منهما فرسا بقماش مذهب[٤].

أما بقية المساعدين فصرفت لهم المكافآت، لكل واحد خمسمائة درهم[٥].

وتكونت هيئة التدريس بهذه المدرسة على النحو التالى: الشيخ علاء الدين السيرامى لتدريس الفقه الحنفى، والشيخ أوحد الدين الرومى النَّسَوِى مدرسًا للشافعية، والشيخ شمس الدين بن مكين لتدريس المذهب المالكى، كما أسند التدريس للحنابلة للشيخ صلاح الدين بن الأعمى، وقام بتدريس الحديث الشيخ أحمد زاده العجمى، وبتدريس القراءات الشيخ فخر الدين الضرير، إمام الجامع الأزهر، أما التفسير فقد أسند للبلقينى[٦].

وتوالى بعد ذلك الإكثار من بناء هذه المؤسسات، فقد حاكى السلطان برقوق كبار أمرائه في هذا المجال، مما أسهم في تقديم الخدمات الاجتماعية التى عم النفع بها جمهور المتعلمين فى هذه المدارس بالإضافة إلى الخدمات الأخرى حيث غدت هذه المؤسسات موئلا للعبادة وملجأ للفقراء.

ولم تكن مدرسة السلطان برقوق أول مدرسة أنشئت على عهده، بل سبقت بمدرستين، إحداهما للأمير صلاح الدين خليل بن عرام (ت سنة ٧٨٢هـ) نائب

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٧٢.

(٢) يتولى صاحب هذه الوظيفة الإشراف على العمائر السلطانية وإنجازها «مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار» وغيرها، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٤٣.

(٤) ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٣، أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٣٦.

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣١٤.

الإسكندرية في أيام إمارة برقوق، وكان برقوق وقتئذ هو المتصرف في شئون الدولة، فبنى ابن عرام المذكور مدرسة بظاهر القاهرة بالقرب من جامع الأمير حسن[١].

أما المدرسة الأخرى فقد بناها الأمير الكبير أَيْتَمُش البَجَاسى قائد الجيش المملوكى زمن السلطان برقوق، وقد عرفت هذه المدرسة بالمدرسة الأيتمشية، وتم بناؤها سنة ٧٨٥هـ[٢].

أما عن المدارس التى أعقبت بناء مدرسة برقوق، فقد بنى الأمير بَهَادُر الـمَنْجَكِىّ أستادار السلطان برقوق، والمتوفى سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م مدرسة ونسبت إليه[٣].

أما مدرسة إِينَال التى تم إنشاؤها سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م، فقد بناها الأمير إينال اليُوسُفِى، قائد الجيش المملوكى فى عهد السلطان برقوق[٤].

كذلك بنى الأمير جمال الدين محمود الأستادار زمن السلطان برقوق، مدرسته التى عرفت باسم المدرسة المحمودية، وقد تم بناء هذه المدرسة في سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤، أى قبل وفاة صاحبها بسنتين، وقد تعرض المقريزى لهذه المدرسة فوصفها بقوله إنها «من أحسن مدارس مصر»[٥].

أما المدرسة الزمامية التى تم بناؤها سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م، فقد بناها الأمير زين الدين مقبل الرومى «زمام الآدر الشريفة»[٦] زمن السلطان برقوق[٧].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٣٩٤، ابن حجر: إنباء الغمر: جـ١ ص٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٤٠٠.

Van Berchem Op. Cit. P. 295.

(٣) طرخان: دولة المماليك الجراكسة ص٣١٩.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٤٠١.

Van Berchem Op. Cit. P. 306.

(٥) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٣٩٥.

(٦) الآدر الشريفة، يقصد بها الحرم السلطانى، وزمام دار، هو الموكل بحفظ الحرم، أى الذى يتحدث على باب ستارة السلطان، سعيد عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام ص٣٨٨، ٤٢٣.

(٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٣٩٤.

ومن المدارس التى أنشئت على عهد السلطان فرج بن برقوق مدرسة الأمير جمال الدين يوسف أستادار السلطان فرج، وقد تم بناء هذه المدرسة سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م[١]، ثم عين فيها جمال الدين الأستادار لكل مذهب من المذاهب الأربعة مدرسا، بالإضافة إلى مدرس للحديث، وآخر للتفسير[٢]، فقام الشيخ همام الدين محمد ابن أحمد الخوارزمى الشافعى بالتدريس للشافعية بالإضافة إلى مشيخة التصوف، والشيخ بدر الدين محمود بن محمد المعروف بالشيخ زاده الخَرْزَيانى بتدريس الفقه الحنفى، وقام بالتدريس للمالكية الشيخ شمس الدين محمد بن البساطى، وللحنابلة أبو الفتح محمد بن نجم الدين الباهلى، وبتدريس الحديث شهاب الدين أحمد بن حجر، وفى التفسير شيخ الإسلام جلال الدين بن عبد الرحمن بن البلقينى، وصار جدول العمل بالمدرسة على هذا النحو: يبدأ الدرس الأول بمادة الفقه الشافعى، وينتهى بمادة التفسير، كما خصص صاحب المدرسة لكل واحد من هؤلاء المدرسين الستة مجموعة من الطلاب[٣].

وقد ذكر فاتن برشم: أن اسم جمال الدين الأستادار صاحب هذه المدرسة، قد محى من هذه المدرسة فى فترة لاحقة، وكتب عوضا عنه اسم السلطان الملك الناصر فرج بدائر صحنها وعلى قناديلها وبسطها وسقوفها[٤].

ولم تكن مؤسسات التعليم هذه قاصرة على السلاطين والأمراء فحسب بل أسهم فيها كذلك ذوو اليسار من طبقات المجتمع المختلفة، فبنوا المدارس، وصارت تنسب إليهم كما تنسب إلى السلطان أو الأمير الذى يملك القدرة المادية على البناء والتعمير، فالمدرسة الخروبية التى كانت تقع على شاطئ النيل، قام بانشائها تاج الدين محمد بن أحمد الخروبى، أحد كبار التجار المصريين زمن السلطان برقوق، وقد جعل بها مدرسًا للحديث فقط[٥].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٧٩٢.

Van Berchem Op. Cit. P. 314.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٣٩٩.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٤٠١ - ٤٠٢.

(٤) Van Berchem Op. Cit. P. 315.

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٣٦٨، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٨٥.

كذلك مدرسة المحلى التى أقيمت على شاطئ النيل، فى عهد السلطان برقوق، قام ببنائها كبير التجار بمصر برهان الدين المحلى[١].

المكتبـــات:

هذا ويلحق بالمدرسة في أغلب الأحيان خزانة كتب، فمثلا احتوت مدرسة الأمير جمال الدين محمود الأستادار زمن السلطان برقوق، على الكثير من الكتب فى سائر الفنون، واقتصر استعمال هذه الكتب على الدارسين بالمدرسة فقط، وقد وصف المقريزى خزانة الكتب هذه بقوله: «لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها... وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن»[٢].

كما ألحقت خزانة كتب أيضًا بالمدرسة الزمامية التى أنشئت سنة ٧٩٧هـ في عهد السلطان برقوق[٣].

كذلك ألحقت بمدرسة الأمير جمال الدين يوسف الأستادار في عهد السلطان فرج ابن برقوق، خزانة كتب احتوت على كثير من كتب الحديث والفقه وغيره من أنواع العلوم، كما كان بها عشرة مصاحف كبيرة الحجم[٤].

والملاحظ أن أغلب هذه المدارس قام بدور مزدوج في خدمة العلم وإحياء شعائر الدين، فمثلا جعل الأمير مقبل الرومى في عهد السلطان برقوق منبرًا لخطبة الجمعة في مدرسته المعروفة بالمدرسة الزمامية[٥]، كما كانت تؤدى بها شعائر صلاة الجماعة كذلك[٦]، وقد ظلت هذه المدرسة تؤدى رسالتها في إحياء شعائر صلاة الجمعة حتى أيام المؤرخ ابن إياس الذى أشار إليها بقوله: «تقام بها الجمعة إلى الآن»[٧].

---

(١) المقريزى: نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٣٩٥.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ١٠ ص١٦٨.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٤٠١.
(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٣٩٤.
(٦) السخاوى: الضوء اللامع جـ١٠ ص١٦٨.
(٧) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٧٨٩.

وكذلك كانت مدرسة الأمير جمال الدين يوسف الأستادار زمن السلطان فرج بن برقوق، فكانت كما يقول المقريزى: «يعلن فيها بالأذان خمس مرات فى اليوم والليلة، وتقام بها الصلوات الخمس فى جماعة عديدة»[1].

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٤٠٢.

الخلاصة:

نستطيع من هذه الدراسة السريعة أن نبين أهمية هذه المرحلة من تاريخ مصر فيما يلى:

١- استطاع السلطان برقوق أن يعيد لمصر علاقاتها الخارجية مع الدول الأوربية وملوكها إلى سابق عهدها وقت حكم الناصر محمد بن قلاوون الذى لم يستطع أحفاده الحفاظ عليها، ولم ينس أن يدعم التضامن الغربى بتوثيقه للروابط بين مصر ودول المغرب في تلك الفترة.

٢- استطاع السلطان برقوق نتيجة اهتمامه بتقوية جيوشه والعناية بها أن يوقف زحف تيمور لنك نحو بلاد الشام، ولم يتم لتيمور ذلك إلا بعد وفاة السلطان برقوق، ولم يهمل العناية بالأسطول البحرى بل دعمه وزاد من كفاءته مما مكنه من درء (دفع) خطر القراصنة عن شواطئ الدولة، وتدعيم مركزه بين الدول مما تجلى فى السفارات والزيارات التى كانت ترسل إليه.

٣- ولم يقتصر اهتمام برقوق على الأخطار الخارجية بل اهتم أيضًا بدرء الأخطار الداخلية متمثلة فى العربان، تجلى ذلك في استحداثه لنيابتى الوجه البحرى والوجه القبلى ليتمكن نائبه من التصرف المباشر ضد هذه الأخطار.

٤- وفى مجال العناية بالموقف الداخلى اقتصاديا حتى يضمن للدولة استمرارها فإنه قد نشط فى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتنمية موارد الدولة المالية وذلك بحسن اختياره للأشخاص الذين تولوا إدارة دفة الدولة اقتصاديًا، واهتم أيضًا بالأنشطة الصناعية وأحيا منها ما كان قد اندثر مما كان له الأثر البالغ على ازدياد النشاط التجارى الداخلى فى عهده واستقرار الحياة الاقتصادية.

٥- استطاع السلطان برقوق أن يعيد للحياة الاجتماعية بهجتها التى كانت لها أيام الفاطميين والأيوبيين نتيجه الاستقرار الاقتصادى، تجلى ذلك فى مظاهر الاحتفالات الشعبية والرسمية.

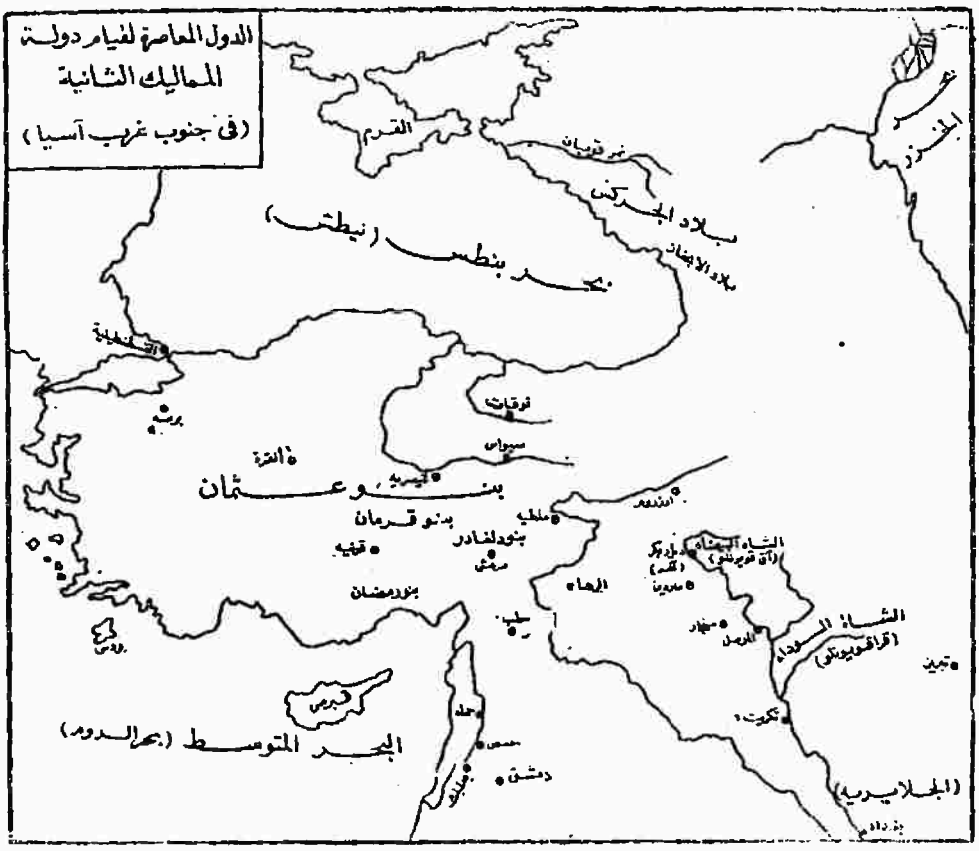
الدول المعاصرة لقيام دولة
المماليك الثانية
(فى جنوب غرب آسيا)
القرم
بلاد الجركس
بحر بنطس (نيطس)
بلاد الأبخاز
بنو عثمان
بنو قرمان
بنو رمضان
بنو لفادر
البحر المتوسط (بحر الروم)
قبرص
الشام
الجزيرة
العراق
(الجلايريه)

ملاحق البحث

ملحق رقم (١)

كتاب السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بن أبى عبد الله صاحب تونس إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٢هـ يهنئه فيه بالعودة إلى ملكه (القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص٧٩ – ٨٤).

«من عبد الله المتوكل على الله، أمير المؤمنين أحمد، ابن مولانا الأمير أبى عبد الله... إلى أخينا الذى لم نزل نشاهد من إخائه الكريم، في ذات الرب الرحيم، قبلة صفاء لم تغيرها يد بعاد ولا انتزاح،... السلطان الجليل الطاهر، الملك الأعظم الظاهر... أبى سعيد برقوق... فإننا كتبنا لسلطانكم ـــ كتب الله لكم من إسعاده ما يتكفل بعزه ونصره، ويتضمن إطالة زمنه المبارك وعصره، ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره ـــ من حضرتنا العلية تونس... أنّا ـــ علم الله ـــ من حين اتصل بنا خبركم الذى جره القدر المقدور، وجرى به فى أم الكتاب الحكم المسطور، لم نزل نتوجه إلى الله تعالى في مظان قبول الدعاء، ورفع النداء، بأن يجبركم بفضله من حيث صدع... إلى أن دارك الله بلطفه وأجاب... ولما جاءنا بنصركم البشير... هززنا له أعطاف الارتياح، وتلقينا منه وارد التهانى والأفراح، وحمدنا الله لكم على ما مَنَّ به من الفوز والنجاح، ورأينا أن تمنتكم من فروضنا المؤكدة، وعهودنا المجددة...».

ملحق رقم (٢)

كتاب الظاهر برقوق إلى السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بن أبى عبد الله صاحب تونس، ردا على كتابه السابق في سنة ٧٩٢هـ.

(القلقشندى: صبح الأعشى جـ٧ ص٣٧٦ — ٣٨٤).

«من عبد الله ووليه، السلطان الأعظم، الملك الظاهر... أبى سعيد برقوق... تحية تتأرج نفحا... وتعيد ميت الأشواق حيا، إذا ما، تخص الحضرة العلية... حضرة الأمير العالم... المتوكل على الله أحمد، ابن مولانا الأمير أبى عبد الله محمد... بعد حمد الله جامع الشمل بعد تفريقه... فإننا نوضح لعلمه الكريم أن كتابه الكريم ورد ورود السنة على الجفن الساهر... لله دره من كتاب... جدد من أثواب المسرة ما كان قد أخلقته يد الأتراح، فهمنا معناه فهما... وعلمنا ما اتصل بسمعكم من خبرنا العجيب، وحديث أمرنا القديم والغريب، الذى أظهر فينا لله أسرارا، وكتب لنا منه عناية كبت بها أشرارًا، سبحانه... وهب ما كان سلب، وجعل لعسيرنا حسن المنقلب، أعادنا إلى الملك مع كثرة الأعداء وقلة الأنصار... فاعلموا أن لله في ذلك سرا خفيا، لم يزل ببركة رسوله بنا حفيا، قمتم لنا فيه بواجب آلهتنا... فاستحلينا من كتابكم عرائس بشراه... ولما عرضت علينا من جودكم عند العشى الصافنات الجياد... نقسم لقد حيرتنا، ألوانها إذ خيرتنا...».

ملحق رقم (٣)

كتاب من تيمور لنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥هـ.

(الغياثى: التاريخ الغياثى ص١٨٨ – ١٨٩).

«إن قبل هذا كانت من الملوك من نسل جنكزخان لهم منازعات مع تلك المماليك، ومن تلك الواسطة كان يحصل لأهل الشام تفرقة وانصداع، وفى الآخر آل الأمر إلى الصلح.

ولما توفى السلطان السعيد أبو سعيد بهادرخان، إلى رحمة الله ـــ ولم يبق من نسل جنكزخان سلطان له شوكة، وظهرت ملوك الطوائف وكثر الهرج والمرج بين العالم، والآن بعناية مالك الملوك، تمام ممالك إيران من عراق العرب التى هى فى جواره سخرناها، ينبغى أن يراعى حق الجوار، ونفتح أبواب المراسلات، ويتردد بيننا القصاد ـــ بين الجانبين ـــ لتأمن الطرقات، ويتردد التجار والقوافل».

ملحق رقم (٤)

كتاب تيمور لنك (الكتاب الثانى) إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٦هـ.

(المقريزى: أحمد بن على: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٨٠٣ — ٨٠٥).

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[1].

اعلموا أنّا جند الله مخلوقون من سخطه، مسلطون على من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكى، ولا نرحم باكى، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا، ومن جهتنا، فقد خربنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلت لنا أعزها، وملكنا بالشوكة أزمتها، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل، وقال إن فيه عليه مشكل، فقل له: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾[2] وذلك لكثرة عددنا، وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وأسنتنا بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرمال، ونحن أبطال، وأقيال، وملكنا لا يرام وجارنا لا يضام، وعزنا أبدا بالسؤدد مقام، فمن سالمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل، وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم خالفتم وعلى بغيكم تماديتم، فلا تلوموا إلا أنفسكم، فالحصون منا، مع تشييدها لا تمنع، والمدائن بشدقها لقتالنا لا ترد ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا، ولا يسمع، وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام، وضيعتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعددتم لكم النار وبئس المصير ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[3] فلما فعلتم ذلك، أوردتم أنفسكم موارد المهالك، وقد قتلتم العلماء، وعصيتم رب

---

(١) سورة الزمر: آية ٤٦ .

(٢) سورة النمل: آية ٣٤.

(٣) سورة النساء: آية ١٠.

الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغى والإسراف، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفى غد ينادى عليكم ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[1] فأبشروا بالمذلة والهوان، يا أهل البغى والعدوان، وقد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة، وقد سلطنا عليكم إله له أمور مقدرة، وأحكام مدبرة، فعزيزكم عندنا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، لأننا ملكنا الأرض شرقًا وغربًا، وأخذنا منها كل سفينة غصبا، وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادى منادى الفراق: هل ترى لهم من باقية؟ ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزا ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[2] وقد أنصفناكم إذ راسلناكم، فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فما على الرسول إلا البلاغ المبين، وقد أوضحنا لكم الكلام، فأسرعوا برد جوابنا، والسلام».

---

(١) سورة الأحقاف: آية ٢٠.

(٢) سورة مريم: آية ٩٨.

ملحق رقم (٥)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٧٩٦هـ:

(المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٨٠٥ – ٨٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾[1].

حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية، ونزعاتكم الشيطانية، فكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية، وسيرة الكفرة الملاكية، وأنكم مخلوقون من سخط الله، ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا ترقون لشاك، ولا ترحمون عبرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذاك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين، لا من صفات السلاطين، ويكفيكم هذه الشهادة الكافية، وبما وصفتم به أنفسكم ناهية ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[2] ففى كل كتاب لعنتم، وعلى لسان كل مرسل نعتم، وبكل قبيح وصفتم، وعندنا خبركم من حين خرجتم، أنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين، من تمسك بالأصول، فلا يبالى بالفروع، نحن المؤمنون حقًا، لا يدخل علينا عيب، ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلمنا ببركته تأويله، فالنار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: آية ٢٦ .

(٢) سورة الكافرون.

(٣) سورة الأنفطار: آية ١.

ومن أعجب العجب تهديد الرتوت[١] باللتوت[٢]، والسباع بالضياع، والكماة بالكراع، نحن خيولنا برقية، وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، وليوثنا مضرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البيضاعة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

وأما قولكم: قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يبالى بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٤] الفرار الفرار من الرزايا، وطول البلايا، واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعداء، وإن قتلنا قتلنا شهداء، ألا إن حزب الله هم الغالبون، أبعد أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة؟ لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ففى نظمه تركيك، وفى سلكه تلبيك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان؟ أم اتخذتم إلها ثان؟ وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾[٥] قل لكاتبك الذى وضع رسالته، ووصف مقالته:

---

(١) الرتوت: جمع رت، وهو الرئيس والسيد (لسان العرب).

(٢) في الأصل والنجوم الزاهرة ونزهة النفوس وعجائب المقدور (المطبوع): «التوت» والمثبت فى عجائب المقدور ورقة ٦٤ (نسخة كتبت سنة ٨٥٢هـ قبل وفاة المؤلف، وهو النسخة المصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٧٣٥ تاريخ.
واللتوت: جمع لت، وهو فارسى الأصل، ومعناه القدوم أو الفأس العظيمة، راجع السلوك جـ١ القسم الثالث ص٨٥٨ حاشية ١.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ – ١٧١.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٤٩.

(٥) سورة مريم: آية ٨٩، ٩٠.

وصل كتابك كضرب رباب، أو كطنين ذباب ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾[1] إن شاء الله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[2] لقد لبكتم[3] فى الذى أرسلتم، والسلام».

(١) سورة مريم: آية ٧٩، ٨٠.

(٢) سورة الشعراء: آية ٢٢٧.

(٣) التبك الأمر: اختلط والتبس، واللبك: الخلط (لسان العرب).

ملحق رقم (٦)

كتاب الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٨هـ (القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص٧٢ - ٧٦).

«أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالى السلطانى الظاهرى... وبعد، فإن الجلالة والاحترام بمما دوام الموالاة، وتوفير الحرمات، بل هى أعظم الكرامات، والمسئول من المقام الشريف الظاهرى أعز الله تعالى أنصاره، وضاعف اقتداره، بروز أمره الأشرف إلى النواب بمصر المحروسة، وثغر الإسكندرية، لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية، ومن انتسب إلينا من تاجر وغيره، مسافرًا كان أو مقيمًا، وأن يُعَارَ في مهماته، جلالة تَفيَأ ظلالُها، ويشمله إقبالُها... ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب، ويسأل الجواب بالإذن الشريف: ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام، عند تيسير الله تعالى لذلك، فقد حسن ظنه بذلك، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام، فلا زالت أيام المقام الشريف على منابر الدنيا تتلى، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في الملك العقيم تملى، جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج، وتسفير المحمل في كل عام، إلى بيت الله الحرام...».

ملحق رقم (٧)

كتاب السلطان عثمان بن أبي العباس المريني صاحب فاس إلى السلطان فرج ابن برقوق في سنة ٨٠٤هـ (القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص١٠٣ — ١٠٦).

«من عبد الله ووليه عثمان أمير المسلمين... ابن مولانا السلطان المظفر... أبي العباس ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سالم، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد، ابن مولانا أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق... إلى محل أخينا... أبي السعادات فرج بن السلطان الجليل... أبي سعيد برقوق... سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه... فإنا كتبنا إليكم... وقد كان انتهى إلينا حركة عدو الله وعدو الإسلام، الباغي بالاجتراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام، الآخذ فيهم بالعبث والفساد، الساعي بجهده في تهدم الحصون وتخريب البلاد، وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية، وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية، والحمد لله الذى كفى بفضله شره، ودفع نقمته وضره، وانصرف ناكصا على عقبه، خائبا من نيل أربه، ولقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذى غلبه الله عليه، وما أضمر لخلق الله من الشر الذى يجده في أحراه ظله يسعى بين يديه، عزمنا على أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضاء، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد في إمداد المناصرة ويرتضى، فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال، وأذهب عنهم الأوجال، ويسر لهم الأعمال... وهو سبحانه وتعالى يدم سعادتكم... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ملحق رقم (٨)

جواب السطان فرج بن برقوق على هذا الكتاب.

(القلقشندى: صبح الأعشى جـ٧ ص٤٠٧ – ٤١١).

«عبد الله ووليه السلطان الأعظم... يخص المقام العالى رفع الله تعالى له في ملكه الشامخ منارا، وجعل النصر والظفر له شعارا... أما بعد حمد الله... فإنه ورد علينا على يد رسولكم كتاب كريم طاب وروده... وقابلناه من القبول بما كاد باطنه لكمال الموافاة يكون عنوانا للظاهر... وفهمنا ما أظهره من كوامن المحبة التى بلغت من القلب الشغاف... وانتهينا إلى ما أشار إليه المقام العالى من التلويح إلى طرق أطراف ممالكنا الشريفة من طارق الاعتداء، وما كان من الواقعة التى كاد خبرها لفظاعته يكون كالمبتدا.

ونحن نبدى لعلم المقام العالى ما يوضح أن ما وقع من هذه القصة لم يكن عن سوء تدبير، ونورد عليه من بيان السبب ما يحقق عنده أن ذلك لم يكن لعجز ولا تقصير، بل الأمر قدر في الأزل، ومقدور الله تعالى لا يدفع بالحيل.

وذلك أنه لما اتصل بمسامعنا الشريفة قصد العدو إلى جهتنا، وتجاوزه حد بلاده إلى أطراف مملكتنا، بادرنا بالحركة إليه في عسكر لجب، وجيوش يضيق عن وسعها الفضاء الرحب، من كل بطل عركته الحروب، وثقفته الخطوب... وتحركنا من الديار المصرية في جيوش لا يأخذها حصر، ولا يظن بها على كثرة الأعداد كسر، ولم نزل نحث السير، ونسرع الحركة للقاء العدو إسراع الطير، حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنا بظاهرها، مستمطرين النصر فى أوائل حركتنا وأواخرها، وانضم إلينا من عساكر الشام وعربانها، وتركمانها الزائدة على العد وعشرانها، ما لا ينقطع له مدد، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد، وأقبل القوم في لفيف كالجراد المنتشر، وأمواج البحر التى لا تنحصر: من أجناس مختلفة، وجموع على تباين الأنواع مؤتلفة، وتراءى الجمعان فى أفسح مكان، ورأى كل قبيل الآخر رأى العين وليس الخبر كالعيان، وأعتدَّ الفريقان للنـــزال، واحتفروا خنادق للاحتراس، وتبوأنا مقاعد للقتال، ولم يبق إلا المبارزة، والتقاء الصفوف والمناجزة،

إذ ورد وارد من جهتهم يطلب الصلح والموادعة، والجنوح إلى السلم وقطع المنازعه، فأجبناهم بالإجابة، ورأينا أن حقن الدماء من الجانبين من أتم مواقع الرأى إصابة... فبينا نحن على ذلك، واقفون من المواعدة على الموادعة على ما هنالك، إذ بلغنا أن طائفة من الخونة الذين ضل سعيهم، وعاد عليهم بالوبال، ولله الحمد، بغيهم، توجهوا إلى الديار المصرية للاستيلاء على تخت ملكنا الشريف فى الغيبه، آملين ما لم يحصلوا منه إلا على الخيبه، فلم يسع إلا الإسراع في طلبهم، للقبض عليهم وإيقاع النكال بهم، وجازيناهم بما يجازى به الملوك من رام مرامهم، وظن العدو أن قصدنا الديار المصرية إنما كان لخوف أو فشل، فأخذ في خداع أهل البلد حتى سلموه إليه وفعل فعلته التى فعل، ليقضى الله أمرًا كان مفعولا.

ثم لم نزل ندأب في تحصين البلاد وترويح أعمالها، وترتيب أمورها وتعديل أحوالها، حائطين أقطارها المتسعة بجيوش لا يَكِلُّ حَدُّها، ولا يعقب بالجزر مدها، ليكونوا للبلاد أسوارا، وللدولة القاهرة إن شاء الله أعوانا وأنصارا، وأعاد الله تعالى المملكة إلى حالها المعروف، وترتيبها المألوف، فاستقرت بعد الاضطراب، وتوطنت بعد الاغتراب.

والله تعالى يجنب إخاءكم الكريم مواقع الغِيَر، ويقْرُن مودته الصادقة بصفاء لا يشوبه على ممرّ الزمان كدر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ملحق رقم (٩)

كتاب مانويل إمبراطور الدولة البيزنطية إلى السلطان فرج بن برقوق في السابع والعشرين من صفر سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م.

(القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص١٢١ - ١٢٢).

«المعظم الممجد، المبجل، الضابط، السلطان، الكبير، سلطان مصر ودمشق وحلب وغيرها، الملك الناصر فرج ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر برقوق المحبوب إلى أكثر من أولاد مملكتى.

يحيط علمه أننى ومملكتى طيبون بنعمة الله تعالى، وكذلك تكون ـــ إن شاء الله تعالى ـــ سلطنتك الممجدة طيبة في خير، وأن المحبة والمودة لم تزل بين والدك المرحوم وبين والدى إلى آخر وقت.

ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت، وتتوكد أيضًا المحبة بيننا وبين سلطنتك المعظمة إلى الأبد، فإن ذلك واجب، وتتردد رسلكم بكتبكم إلينا، وكذلك رسلنا بكتبنا إلى ملككم، وكان قصدنا أن نجهز إليكم رسولاً لكن الفتن في بلادنا، وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تخت مملكته، ولم نعرف إلى أى مكان توجه، أوجب تأخير ذلك، وأن حامل هذا الكتاب المتوجه به إلى السلطان المعظم المسمى (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جهتنا، وله عادة بالتردد إلى مملكتكم المعظمة، ونحن نعلم أن سلطنتك تحب الطيور الكواهى[1]، فجهزنا لكم صحبة المذكور خمس كواهى وبازدار[2]، ليكون نظركم الشريف عليهم، وكذلك على البطاركة والنصارى والكنائس على حكم معدلة السلطان ومحبته، والوصية بهم، ومعاونتهم ورعايتهم وإجراؤهم على جارى عوائدهم، من غير تشويش على ما ألفوه من إنصافكم أولا وآخرا لأجل محبتكم لنا ومحبتنا،

---

(١) كواهى: أى صقور الصيد، راجع أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ حاشية ٣ص ٦٤.

(٢) البازدار: هو الذى يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ ص٤٦٩.

واستمرار العناية بهم، مع أن البطاركة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم، والإحسان إليهم، ولم يزالوا داعين له شاكرين معدلته، ونضاعف شكرنا من إحسانكم على ذلك، وتكونوا إن شاء الله تعالى طيبين، والمحبة متزايدة في أيامكم وأيامنا، ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع[1]، فيرسم يعرفنا بها ونبادر بذلك».

(١) كذا أوردها المحقق فى المتن، وأوضح في الحاشية أنها هكذا في الأصل ومراده من خدم وحاجات.

ملحق رقم (١٠)

كتاب دوج البندقية المسمى ميخائيل إلى السلطان فرج بن برقوق في ١٦ من صفر سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م.

(القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص١٢٣ - ١٢٤).

السلطان المعظم، ملك الملوك «فرج الله» ناصر الملة الإسلامية، خلد الله سلطانه.

يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة، ويسأل الله أن يزيد عظمته، لأنه ناصر الحق ومؤيده، وموئل الممالك الإسلامية كلها، وينهى ما عنده من الشوق والمحبة لمولانا السلطان، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتشمين[1] والمترددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده، وتزايد الدعاء ببقاء دولته، وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك، ولأجل الصلح المتصل بيننا والمحبة.

وأما غير ذلك، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضى من حبس العر[2] في ثغر دمياط المحروس، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتشمين من التجار بثغر الإسكندرية المحروس، وزنجرهم بالحديد، وأحضرهم إلى القاهرة، وحصلت لهم البهدلة بين جنوسهم والضرر والقهر الزائد، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا، فإن الذى فعل مع المذكورين إنما فعل معنا، وتعجبنا من ذلك، لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته، ومحبتنا له، ومناداتنا في جميع مملكتنا بكثرة عد له، وبمحبته لطائفتنا، وإقباله عليهم، وقولنا لجميع نوابنا: إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه،

---

(١) يقصد بذلك أكابر تجار البنادقة، والمحتشمون جمع محتشم، وهو من الألقاب التى اصطلح عليها لتجار الروم والفرنج، والمراد بذلك الرئيس الذى له خدم وحشم، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٦ ص٨٣.

(٢) كذا فى الأصل.

والمسئول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم، والنظر في أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر، ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته».

ملحق رقم (١١)

كتاب القبطان الجنوى بميناء الماغوصة بقبرص إلى السلطان فرج بن برقوق في صفر سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م.

(القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص١٢٤ – ١٢٥).

«الملك المعظم، ملك الملوك، صاحب مصر المحروسة، الملك الناصر، عظم الله شأنه،

يقبل الأرض بين يديه الكبطان والمستشارون، وينهون أنهم آناء الليل داعون بطول بقائه، مجتهدون في استمرار الصلح والمودة التى لا يشوبها كدر بين القومون[١] وبين مولانا السلطان، وأن في هذا الوقت ثَمَّ حرامية غراب[٢] يتحرمون[٣] بأطراف هذه البلاد، واليمن الإسلامية، ونحن لما نزل نشحطهم[٤] بالمراكب والأغربة[٥]، ونمنعهم من ذلك جهدنا وقدرتنا، حتى إن أحدًا صار لا يجسر على الدخول إلى ميناء الماغوصة جملة كافية، مع أننا كنا خلصنا فى المدة الماضية من الحرامية المذكورة خمسة وعشرين نفرا من المسلمين، وأكرمناهم وأطلقنا سبيلهم، وعزمنا أن نجهزهم إلى دمياط أو إلى ثغر الإسكندرية، وأما غير ذلك، فقد بلغنا أن برطلما أوسق للمواقف الشريفة صابونا فى مراكبه، وكان قصده أن يهرب بذلك، فللحال عمرنا مركبًا كبيرًا، وأخذنا برطلما المذكور بالمحاربة، وأحضرناه إلى الماغوصة، وعهدنا بطروق المركب إلى شخص يسمى أرمان سليوريون، وهو رجل مشكور السيرة، وقلنا له أن يتوجه إلى خازن الصابون المذكور ويستشيره إن كان يوسق شيئًا من الأصناف لمولانا السلطان،

---

(١) لعله الحاكمون بجنوة، وانظر القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص٤٨.

(٢) أى غرباء.

(٣) في الأصل يتحرمون ــ بالحاء المهملة ــ ولعل الصواب ما أثبته، وفيه معنى الاعتداء.

(٤) أى نطاردهم.

(٥) الأغربة أو الغربان، نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلة والجدافون، والغالب كما يتضح من تسميتها أنها كانت على شكل الغراب، ابن مماتى: قوانين الدواوين ص٣٤٠.

ويجهزه إلى أى مكان اختاره ليسلمه ليد من تبرز له المراسيم الشريفة بتسليمه، فليفعل، وهذا القول كله يكون دليلاً عند مولانا السلطان على صدق الولاء والتمسك بالصلح.

والمسئول من الصدقات الشريفة الإقبال على التجار الجنوية الذين عند مملكته، وكف أسباب الضرر عنهم، وينشر معدلته عليهم، والله تعالى يديم بقاءه بمنه وكرمه».

المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية المخطوطة:

البغدادى: أحمد بن عبد الله (١١٠٢هـ):

عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان ـــ مصورة في مجلدين بدار الكتب المصرية برقم ٣٨١٠ تاريخ.

ابن بهادر: محمد بن محمد (من علماء الثلث الأخير من القرن التاسع الهجرى):

فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، جزءان، مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٩٩ تاريخ.

ابن حبيب: الحسن بن عمر (٧٧٩هـ):

درة الأسلاك في دولة الأتراك، الجزء الثالث، مصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٦٥٩ تاريخ.

ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن على (٨٥٢هـ):

تاريخ المائة التاسعة، مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٤٧٦٧ تاريخ.

الخالدى: بهاء الدين محمد بن لطف الله العمرى (٩٣٧هـ):

المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا، مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢١٠٣١ ز.

ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد (٨٠٩هـ):

الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ـــ النسخة الخطية بدار الكتب المصرية برقم ١٥٢٢ تاريخ (والإشارة إليها فى البحث كالآتى: (الجوهر الثمين ص...) والمصورة برقم ١٥٨٧ تاريخ (والإشارة إليها في البحث، ابن دقماق الجوهر الثمين ورقة...).

الرشيدى: أحمد بن عبد الرزاق بن محمد (١٠٩٦هـ):

حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى أمرة الحاج ـــ مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٢١٥ تاريخ.

السخاوى: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ):
الذيل التام على دول الإسلام ـــ مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ١٠٥٨ تاريخ.

السلامى: شهاب الدين أحمد (القرن التاسع الهجرى):
مختصر التواريخ ـــ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٤٣٥ تاريخ.

ابن شاهين الظاهرى: غرس الدين خليل الظاهرى (٨٧٣هـ):
زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك ـــ مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٦٩٢ تاريخ.

ابن شاهين الملطى: عبد الباسط بن خليل (٩٢٠هـ):
نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ـــ مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٥٤٣ تاريخ.

العينى: بدر الدين محمود (٨٥٥هـ):
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ـــ الجزء الرابع والعشرون والخامس والعشرون ـــ مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ.

ابن قاضى شهبة: أبو بكر أحمد بن محمد (٨٥١هـ):
ذيل تاريخ الإسلام (الإعلام بتاريخ أهل الإسلام) مصور بدار الكتب المصرية برقم ٣٩٢ تاريخ.

أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (٨٧٤هـ):
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ـــ ٥ أجزاء، مرقمة بعدد الصفحات ـــ وهى النسخة الخطية بدار الكتب المصرية برقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور.
ونسخة أخرى في ٣ مجلدات، مرقمة بعدد الأوراق، وهى النسخة الخطية بدار الكتب المصرية برقم ١١١٣ تاريخ.

المقدسى: مرعى بن يوسف (١٠٣٣هـ):
نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ـــ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٠٧٦ تاريخ.

المقريزى: تقى الدين أحمد بن على (٨٤٥هـ):

المقفى في تراجم أهل مصر والواردين عليها ـ مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٥١٠ تاريخ.

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٢هـ):

نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ الجزء الثلاثون ـ مصور بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة.

ثانيًا: المصادر العربية المطبوعة:

ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشى (٧٢٩هـ):

معالم القربة فى أحكام الحسبة (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٦م) حققه الدكتور محمد محمود شعبان ــ صديق أحمد المطيعى.

ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفى (٩٣٠هـ):

بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، القسم الأول والثانى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة سنة ١٩٧٤ — ١٩٧٥م، حققه محمد مصطفى.

الجبرتى: عبد الرحمن بن حسن (١٢٤١هـ):

عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ١، طبعة بولاق سنة ١٢٩٧هـ.

ابن الجيعان: شرف الدين يحيى (٨٥٥هـ):

التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشر موريتز، بولاق ١٨٩٨م

ابن الحاج: أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى (٨٣٧هـ):

المدخل إلى التنبيه على بعض البدع والعوائد، مطبعة مصطفى الحلبى، القاهرة سنة ١٩٦٠م.

ابن حجر: أحمد بن على العسقلانى (٨٥٢هـ):

(أ) إنباء الغمر بأنباء العمر، الجزء الأول والثانى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة سنة ١٩٦٩ — ١٩٧١م، حققه الدكتور حسن حبشى.

(ب) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، دار الكتب الحديثة، القاهرة سنة ١٩٦٦ — ١٩٦٧م تحقيق محمد سيد جاد الحق.

الحيمى: الحسن بن أحمد (١٠٧٠هـ):

سيرة الحبشة، مطبعة دار العالم العربى، القاهرة ١٩٧٢م، وحققه الدكتور مراد كامل.

الخزرجى: أبو الحسن على بن الحسن (٨١٢هـ):

العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، مطبعة الهلال، القاهرة، سنة ١٩١١م.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ):

(أ) التعريف بابن خالدون ورحلته غربا وشرقًا، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١م، حققه محمد بن تاويت الطنجي.

(ب) مقدمة ابن خلدون، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

(جـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ الجزء الخامس، بيروت، مصور، عن طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ.

ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (٨٠٩هـ):

الانتصار لواسطة عقد الأمصار، الجزء الرابع والخامس، طبعة بولاق سنة ١٣١٠هـ، نشر فولرز.

السخاوي: محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ):

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، طبعة القدسي، القاهرة، سنة ١٣٥٣ — ١٣٥٥هـ.

السلاوي: أبو العباس أحمد بن خالد (١٣١٥هـ):

الاستقصار لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٢ مطبعة محمد مصطفى، القاهرة ١٣١٢هـ.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (٩١١هـ):

(أ) تاريخ الخلفاء، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٩م حققه محمد محيي الدين عبد الحميد.

(ب) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة سنة ١٩٦٧م، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم.

ابن شاهين الظاهري: غرس الدين خليل (٨٧٣هـ):

زبدة كشف الممالك بيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٤م.

الشوكاني: محمد بن علي اليمني (١٢٥٠هـ):

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٣٤٨هـ.

ابن الصيرفى: على بن داود (٩٠٠هـ):
نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، الجزء الأول والثانى، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠ — ١٩٧١م حققه الدكتور حسن حبشى.

ابن طباطبا: محمد بن على المعروف بابن الطقطقى (ولد سنة ٦٦٠هـ وأتم كتابه سنة ٧٠١هـ ولا تعرف سنة وفاته):
الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبعة المعارف بمصر سنة ١٩٣٨م.

ابن طولون: شمس الدين محمد بن على (٩٥٣هـ):
إعلام الورى بمن ولى نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٣م، حققه عبد العظيم خطاب.

ابن ظهيرة: برهان الدين إبراهيم بن على (٨٩١هـ)
الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٩م، حققه مصطفى السقا ـ كامل المهندس.

ابن عبد الحق: عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى (٧٣٩هـ):
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، طبعة عيسى الحلبى، القاهرة ١٩٥٤م، حققه على البجاوى.

ابن عربشاه: شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى (٨٥٤هـ):
عجائب المقدور في أخبار تيمور، مصر ١٢٨٥هـ.

ابن العماد: عبد الحى بن العماد الحنبلى (١٠٨٩هـ):
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر القدسى: القاهرة، ١٣٥٠هـ.

العمرى: شهاب الدين أحمد بن فضل الله (٧٤٢هـ):
التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، بالقاهرة ١٣١٢هـ.

العينى: بدر الدين محمود (٨٥٥هـ):
السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد، دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧م، حققه فهيم شلتوت.

الغياثى: عبد الله بن فتح الله البغدادى (من علماء القرن العاشر الهجرى):
التاريخ الغياثى، بغداد ١٩٧٥م، حققه طارق الحمدانى.

الفاسى: أبو الطيب محمد بن أبى العباس المكى (٨٣٢هـ):
العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٦٢م، حققه فؤاد سيد ـ محمود الطناحى.

أبو الفدا: إسماعيل بن على (٧٣٢هـ):
المختصر في أخبار البشر: المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥هـ.

ابن الفرات: (محمد بن عبد الرحيم ت٨٠٧هـ):
تاريخ الدول والملوك، الجزء التاسع، نشر الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة نجلاء عز الدين، بيروت ١٩٣٦م.

الفيروزابادى: محمد بن يعقوب (٨١٦هـ):
القاموس المحيط، المطبعة المصرية ١٩٣٥م.

القلقشندى: أبو العباس أحمد بن على (٨٢١هـ):
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزءا، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٣م، مصورة عن الطبعة الأميرية القاهرة ١٩٢٠م.

أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (٨٧٤هـ):
(أ) المنهل الصافى المستوفى بعد الوافى جـ١، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٦م، حققه أحمد نجاتى.
(ب) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، والأجزاء من ١ — ١٢، المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣م، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٠ — ١٩٥٦م.
والجزء الثالث عشر طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧٠م، حققه فهيم شلتوت.

المقريزى: تقى الدين أحمد بن على (٨٤٥هـ):
(أ) إغاثة الأمة بكشف الغمة، سورية سنة ١٩٥٦م.

(ب) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، مطبعة التأليف القاهرة ١٨٩٥م.

(جـ) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦١م، حققه عبد المجيد عابدين.

(د) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١، جـ٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٥٨م، حققه الدكتور محمد مصطفى زيادة.

الجزء الثالث والرابع، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٧٠ — ١٩٧٣م، حققه الدكتور سعيد عاشور.

(هـ) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — جزءان — مؤسسة الحلبى بالقاهرة، مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ.

ابن مماتى: الأسعد شرف الدين (٦٠٦هـ):

كتاب قوانين الدواوين، مطبعة مصر سنة ١٩٤٣م، حققه عزيز سوريال عطية.

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٢هـ):

نهاية الأرب في فنون الأدب — الجزء الثامن — المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩م.

ياقوت: شهاب الدين ياقوا الرومى الحموى (٦٢٦هـ):

معجم البلدان، طبعة الخانجى، القاهرة ١٩٠٦م.

ثالثًا: المراجع العربية الحديثة:

توفيق إسكندر: نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية في العصر الوسيط: مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس سنة ١٩٥٧م.

حسن الباشا: الدكتور حسن الباشا:

الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، النهضة المصرية، سنة ١٩٥٧م.

حكيم أمين: الدكتور حكيم أمين عبد السيد:

قيام دولة المماليك الثانية، دار الكاتب العربى بالقاهرة، سنة ١٩٦٧م.

دراج: الدكتور أحمد دراج:

المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجرى، دار الفكر العربى، سنة ١٩٦١م.

دوزى: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، بغداد سنة ١٩٧١م، ترجمة الدكتور أكرم فاضل.

سرور: الدكتور محمد جمال الدين:

(أ) دولة الظاهر بيبرس في مصر، دار الفكر العربى، القاهرة سنة ١٩٦٠م.

(ب) دولة بنى قلاوون في مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٤٧م.

السندوبى: حسن السندوبى:

تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، سنة ١٩٤٨م.

طوخان: الدكتور إبراهيم على:

(أ) مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، النهضة المصرية، سنة ١٩٦٠م.

(ب) النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربى القاهرة سنة ١٩٦٨م.

عاشور: الدكتور سعيد عبد الفتاح:

(أ) العصر المماليكى في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٥م.

(ب) قبرص والحروب الصليبية، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧م.

(جـ) المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة سنة ١٩٦٢.

(د) مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٩م.

العزاوى: عباس:

تاريخ العراق بين احتلالين، جزءان، بغداد، سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦م.

على إبراهيم: الدكتور على إبراهيم حسن:

(أ) تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨م

(ب) مصر في العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٤م.

فييت: جاستون:

المواصلات فى مصر في العصور الوسطى القاهرة سنة ١٩٣٧، ترجمة محمد وهبى.

فيشل: لقاء ابن خلدون لتيمور لنك، بيروت بدون تاريخ، ترجمة محمد توفيق.

لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، مطبوعات المجمع العلمى العراقى، بغداد سنة ١٩٥٤م، ترجمة وعلق عليه بشير فرنسيس وكوركيس عواد.

ماجد: الدكتور عبد المنعم ماجد:

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، الانجلو، سنة ١٩٦٤م.

ماير: الملابس المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م، ترجمة صالح الشيتى.

محمد رمزى: القاموس: الجغرافى للبلاد المصرية في جزئين، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٣ — ١٩٥٥م.

محمود أحمد: تاريخ العمارة الإسلامية بمصر، القاهرة ١٩٣٧م.

مسعد: الدكتور مصطفى محمد مسعد:

الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، الأنجلو، سنة ١٩٦٠م.

موير، سيروليام: تاريخ دولة المماليك في مصر، مطبعة المعارف بالقاهرة سنة ١٩٢٤م، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن.

نعيم زكي: الدكتور نعيم زكي سليمان:

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

الهوارى: حسن محمد:

رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية، القاهرة بدون تاريخ.

رابعًا: المراجع الأوروبية:

Demombynes (G):

La Syria Al'epoque des Mamelouks (paris 1023)

Doppe: (P.H.):

L'Egypte au commencement de quinzieme siecle, d'apres le traite d'Emmanuel piloti de crete (le caire 1950)

Dozy: (R):

Supplement: aux dictionnaires arabes (supplement Dict Ar.) 2 vols (paris 1927)

Heyd: (W)

Histoire du commerce du levant au Moyenage Tome II (Leipzig 1923)

Poliak: (A.N)

Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanan (Landon 1939)

Van Berchem: (Max)

Materiaux pour un corpus insription un Arabicarum (Le caire 1924) Mem. I.F.A. Cairo)

Wiet: (G)

Histoire de la Nation Egyptienne, t.IV.

(L'Egypte Arabe) (paris 1937).